

رحالة فسی رمضان

ابن جبیر
ابن بطوطة
العیاشی
جیرار دی نرفال
البغدادی
العبدی
ادوارد لنین
محمد السنوسی

obeikandi.com

ابن جبیر فی صکة

رمضان ٥٧٨ هـ

ابن جبیر ، رحالة عربی من الأندلس ، اسمه كاملاً هو أبو الحسين محمد بن جبیر الکنانی ، وقد ولد فی بنسبة سنة ٥٤٠ هـ (١١٤٥م) وتعلم علی أبيه وغيره من علماء عصره ثم أصبح كاتباً لأسرار أمير غرناطة أبي سعيد بن عبد المؤمن الموحدی فاستوطن غرناطة .

ويقال أن الأمير الموحدی استدعاه يوماً ليكتب عنه كتاباً وهو علی شرايه فمد يده إليه بقدر من نبيذ ، فاعتذر ابن جبیر وأبى واسترجع فأقسم عليه الأمير إيماناً مغلظة ليشترين منها سبعة فشر بها صاغراً مكرها ثم ردها عليه أبو سعيد سبعة أقداح من الدنانير .

لذلك أزمع ابن جبیر الحج بتلك الدنانير تكفيراً عن خطيئته ، وأقام سفره سنتين يدون ملاحظاته ومشاهداته في كتابه «تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار» وهو المعروف باسم «رحلة ابن جبیر» .

وقد عايش ابن جبیر في رحلته تلك شهر رمضان مرتين أولهما كانت في عام ٥٧٨ هـ وهو بمكة المشرفة والثانية في العام التالي عند مروره بصقلية أثناء رحلة العودة إلى الأندلس .

وكان أول ما لاحظته بمكة أن أميرها «مكثر» كان من بيت علوى موال للفاطميين رغم مرور أحد عشر عاماً على سقوط دولتهم على يدى صلاح الدين الأيوبي ، حتى أنه أمر بصيام يوم الشك (٣٠ شعبان) وذلك «لموافقته مذهبه ومذهب شيعة العلويين ومن إليهم لأنهم يرون صيام يوم الشك فرضاً»

وقد احتفظ لنا ابن جبیر بوصف دقيق وشامل لما كان يجري بالحرم المكي من مظاهر الاحتفال بشهر رمضان . فسجل أول ما سجل ذلك الاهتمام الكبير بزيادة أحجام وأعداد وسائل الإضاءة منذ صلاة المغرب وحتى الفجر ، وهو ما تتفق عليه كافة الأقطار الإسلامية منذ العصور الوسطى إلى يومنا هذا ، فضلاً عن تجديد قرش الحرم من الحصير عند دخول أول أيام الشهر الكريم .

ومن غرائب ما دونه ابن جبیر أن صلاة التراويح كانت تقام بالحرم في نواح متفرقة بحيث تخصص كل ناحية لفرقة بإمامها ، وعدد أئمة التراويح وهم الإمام الخاص بالشافعية وإمام الحنابلة وثالث للحنفية ورابع للزيدية أما الخامس فهو إمام المالكية .

ولما كان ابن جبیر ، شأنه في ذلك شأن المغاربة وأهل الأندلس ، من المالكية فقد اهتم بأمر مشايخه في المذهب ، حيث ذكر أنهم اجتمعوا في هذا العام على ثلاثة قراء يتناوبون تلاوة القرآن وأنهم أحفل جمعاً وأكثر شمعاً لأن قوماً من التجار المالكيين تنافسوا في ذلك ، فجاءت جبهة المالكية تروق حسناً وتأخذ بالأبصار نورا»

ويبدو من سياق حديثه بعد ذلك أنه كان هناك أئمة آخرون غير الخمسة الكبار الذي عينهم حتى كاد لا يبقى في المسجد زاوية ولا ناحية إلا وفيها قارئ يصلي بجماعة خلفه .

وكان المصلون وراء إمام الشافعية فيما يبدو من حديث ابن جبير هم الأكثر عدداً ، وقد لاحظ أيضاً أنه يزيد في ركعات التراويح حتى تبلغ العشرين خارجاً عن الشفع والوتر مع تعدد مرات الطواف فيما بينها .

وقد حرص الرحالة الأندلسي على أن يشير إلى أحد الأئمة المالكية في الحرم وهو الفقيه الزاهد الورع « أبو جعفر بن علي الفكي القرطبي وقراءته ترق الجمادات خشوعاً » .

أما التسحير خلال رمضان فكان يتم من المئذنة التي في الركن الشرقي للمسجد الحرام وذلك بسبب قربها من دار شريف مكة فيقوم "المؤذن الزمزمي" بأعلاها وقت السحور داعياً ومذكراً ومحرضاً على السحور «ومعه أخوان صغيران يجاوبانه ويقاولانه» .

ونظراً لترامي الدور بعيداً عن الحرم المكي حيث يصعب وصول صوت المؤذن كانت تنصب في أعلى المئذنة «خشبة طويلة في رأسها عمود كالذراع وفي طرفيه بكرتان صغيرتان يرفع عليهما قنديلان من الزجاج كبيران لا يزالان يوقدان مدة التسحير فإذا قرب تبين خطى الفجر ووقع الإيذان بالقطع مرة بعد مرة حط المؤذن المذكور القنديلين من أعلى الخشبة وبدأ بالأذان وثوب المؤذنون من كل ناحية بالأذان»

وعندما يرى أهل مكة من سطوح ديارهم المرتفعة أن القنديلين قد أطفئوا علموا أن الوقت قد انقطع» .

وقد اهتم ابن جبير بأن يسجل مطولاً دخول الأمير سيف الإسلام طفتكين بن أيوب أخى صلاح الدين إلى الحرم وخضوع الأمير لكثرة له وتقبله الخلع التي خلعها عليه ، وبعد ما كتبه بشأن هذه الحادثة التاريخية من النصوص التوثيقية نادرة التكرار .

ومن المظاهر التي حرص على تدوينها ختم القرآن الكريم في كل وتر من الليالي العشر الأواخر في رمضان حيث يتنافس أبناء أهل مكة من الصبية في ختمه والاحتفال بذلك بإيقاد الشموع والشريات وتقديم الطعام . وقد نوه ابن جبير بابن الإمام الحنفى للحرم الذي ختم القرآن في ليلة خمس وعشرين وأعقب ذلك بخطبة بليغة مست شفاف القلوب على صغر سن الخطيب .

وأشار أيضاً إلى غلام مكى من ذوى اليسار دون سن الخامسة عشر احتفل به أبوه احتفالاً بديعاً عند ختمه للقرآن في ليلة ثلاث وعشرين وذلك أنه أعد له ثياباً مصنوعة من الشمع ذات غصون علقت فيها أنواع الفواكه الرطبة واليابسة وأعد لها شعراً كثيراً «وضع وسط الحرم شبيه المحراب المربع أقيم على قوائم أربعة تدلت منه قناديل مسرجة وأحاط دائر المحراب المربع بمسامير مديبة الأطراف غرز فيها الشمع ، وأوقدت الشريا المغصنة ذات الفواكه ... ووضع بمقربة من المحراب مشير مجلل بكسوة مجزعة مختلفة الألوان ، وحضر الإمام الطفل فصلى التراويح وختم وقد ملئ المسجد بالرجال والنساء وهو في محرابه وحوله الشموع ..» .

ويبلغ تأثر ابن جبير مدهام بما يقع من مظاهر الاحتفاء برمضان في ليلة السابع والعشرين فيؤكد أنه لا يوجد شيء يعدل ختم القرآن في تلك الليلة «خلف المقام الكريم وتجاه البيت العظيم وأنها لنعمة تتضائل لها النعم تتساؤل سائر البقاع للحرم» .

ففي تلك الليلة كانت تنصب أعمدة من الخشب تحمل الشموع والمصابيح إزاء حطيم إمام الشاذلية فضلاً عن تعليق ثريات النحاس في أنحاء الحرم ، ويتغالي القوم في زيادة الإضاءة حتى أن صبيان مكة أحرقوا بشرفات الحرم وقد وصعت بيد كل واحد منهم كرة من الخرق مشبعة سليطاً فوضعوها متقدة في رؤوس الشرفات «وأخذت كل طائفة منهم ناحية من نواحيها الأربع فجعلت كل طائفة تبارى صاحبيتها في سرعة إيقادها فيخيل للناظر أن النار تثب من شرفة إلى شرفة لخصاهم وراء الضوء» ذلك مع ارتفاع الأصوات بالتكبير قبل أن يبدأ القاضي صلاة العشاء الآخرة مبتدئاً بسورة القدر التي انتهى أئمة الحرم في الليلة قبلها في القراءة إليها ، وبعد خطبة مؤثرة يعود الأئمة لإقامة تراويحهم كل مع جماعته .

وفي ليلة التاسع والعشرين اختتم سائر الأئمة التراويح وأضيئت الأنوار بالثريات وشمعدان الشمع بنفس الكيفية السابقة احتفالاً بختام الشهر المبارك .

ورغم أن الرحالة الأندلسي كان مالكيًا إلا أنه انتقد خطبة إمام المالكية في ليلة تسع وعشرين لأنها «منتزعة من خطبة الصبي ابن الإمام الحنفي فأرسلها معادة إلى الأسماع ثقيلًا لحنها على الطباع» .

وما أن ثبتت رؤية هلال شوال حتى أوقدت أعالي المآذن من الأربع جهات في الحرم وأوقد سطح المسجد الذي في أعلى جبل أبي قبيس «وأقام المؤذن ليلته تلك في أعلى سطح قبة زمزم مهلاً ومكبراً ومسبحاً وحامداً» .

ويذكر ابن جبير أن صلاة العيد أقيمت بالمسجد الحرام ، وأن الناس بكرروا بالحضور وقد لبسوا أثواب عيدهم ، وبعد فراغ الخطبة أقبل بعضهم على بعض «بالمصافحة والتسليم والتغافر والدعاء مسرورين جذلين فرحين بما آتاهم من فضله وبأدروا إلى البيت الكريم فدخلوا بسلام آمنين مزدحمين عليه فوجاً فوجاً فكان مشهداً عظيماً وجمعاً بفضل الله تعالى مرحوماً» .

وكانت آخر مظاهر الاحتفال بمقدم أول أيام عيد الفطر ، بعد انتشار الناس من المصلى وقضاء سنة السلام بعضهم على بعض «زيارة الجبانة بالمعلي تبركاً باحتساب الخطأ للمصلحين من الصدر الأول وسواهم» .

ثم قبض لابن جبير أن تقذف به تقلبات الجو أثناء رحلته في العودة إلى الأندلس إلى شاطئ صقلية في رمضان من العام التالي ليعاين الفارق الهائل بين ما رآه في مكة وبين ما خبره في هذه البلاد بعدما تغلب عليها النورمانديون وأزاحوا المسلمين عن حكمها .



ابن جبير فى صقلية

لم يصادف ابن جبير فى حياته يوماً كتلك التى مرت به طوال شهر رمضان الكريم من عام ٥٧٩هـ إذ قضى هذا الشهر وهو فى طريق عودته للأندلس بجزيرة صقلية ، وقد حظ ابن جبير عصا ترحاله على شواطئ هذه الجزيرة بعد أن عاين الموت بسبب أهوال البحر التى مزقت المركب الذى كان يستقله .

ويروى لنا الرحالة الأندلسى أنه أستطلع على ظهر البحر أهلة أشهر رجب وشعبان ورمضان وأمضى الأيام الثلاثة الأولى من رمضان فوق ظهر المركب وهو متجه لمدينة « مسينة » الصقلية .

وتعد مشاهدات ابن جبير فى صقلية ، من أهم النصوص التاريخية التى تمحدثنا عن أحوال المسلمين بالجزيرة قبل أن يمر قرن كامل على قيام النورماندين ، بالاستيلاء على صقلية من أيدي الحكام المسلمين المتنازعين ، وكانت هذه النازلة فى عام ٤٨٤ هـ .

والحقيقة الماثلة فى رواية ابن جبير أن المسلمين كانوا حتى وقت زيارته يشكلون نسبة لا بأس بها من السكان ولا سيما فى بعض قرى الريف والمدن التجارية الكبيرة مثل ثرمة وباليرمو فضلاً عن اشتغالهم بالأعمال الادارية لدى النورماندين وكذا التجارة والحرف الصناعية المختلفة .

والأهم من ذلك أن مظاهر الحكم الإسلامى بحضارته المميزة واللسان العربى المبين كانت مازالت ماثلة للعيان حتى فى قصر الملك النورماندى بمدينة باليرمو .

فعندما نزل ابن جبير صحبة المسلمين إلى شاطئ مسينة وجد الملك غليام هناك فقابلهم بما ألفه من حكام الجزيرة المسلمين قبله ، إذ أمر باعفائهم من الجمارك ورسوم كراء الزوارق التى حملتهم للشاطئ وسدد عنهم هذه الأعباء بعدما رأى عجزهم عن أداء ذلك . ويبدو أن عادة القوم فى هذا الميناء كانت قد درجت على الاستيلاء على أموال المسلمين الذين تصادف سفنهم سوء الطالع فتجنح بهم إلى شاطئها ، ولكن وجود الملك الصقلى أنقذ ابن جبير ورفاقه من النهب والسبى .

وقد لاحظ ابن جبير أن « مسينة » التى تستقبل تجارات أوروبا رغم رخص أسعارها ورواج تجارتها وأمن طرقاتها كانت تشعره بأنه « غريب الوجه واليد واللسان » ذلك لأنها « معمورة بعيدة الصليان يشون فى مناكبها ويرتعون فى أكتافها » . أما المسلمون الذين أمنوا على أملاكهم وضياعهم فقد فرضت عليهم آتاوة يؤدونها فى فصلين من العام ، وهم « نفر يسير من ذوى المهن » .

ومن المسلمين الذين صادفهم ابن جبير بهذه المدينة « يحيى بن فتيان الطراز » وهو يطرز بالذهب

فى طراز الملك (أى مصنع نسيج لأقمشة الملك) وآخر من وجهاء وكبراء المدينة يدعى «عبد المسيح» وهو من الذين يكتمون إيمانهم .

وقد أصر هذا الوجه على استضافته ورفاقه فى رمضان ليُبوح لهم بسرهم المكنون «بعد مراقبة منه فى مجلسه أزال لها كل من كان حوله عن يتهمه من خدامه محافظة على نفسه» . وأفاض «عبد المسيح» فى الحديث عن مراعاة المسلمين عند مرورهم بالمياه «واستهداء أدعيتهم والاعتباط بما نتلقاه منهم من تحف تلك المشاهد المقدسة لتتخذها عدة للإيمان وذخيرة للأكفان» وفى نهاية هذه الاستضافة أجزل الفتى العطاء لابن جبير ورفاقه بعدما تفتطرت قلوبهم له إشفاقاً وهم يهدونه بعض ما حملوه من مكة والمدينة .

وبعد مغادرة مسينة عرج الرحالة الأندلسى على مدينة شفلودى التى وصفها بأنها مدينة ساحلية كثيرة الخصب واسعة المرافق منتظمة أشجار الأعناب وغيرها مرتبة الأسواق وتسكنها طائفة من المسلمين .

ومن الملاحظات ذات المغزى التى أوردها ابن جبير أن المدن الكبيرة كانت على الدوام أكثر تسامحاً مع المسلمين بعكس الحصون البحرية والقرى الريفية الصغيرة . وهو ما يذكره عن مدينة «ثرمة» التى للمسلمين فيها «ريض كبير لهم فيه المساجد» حيث قابلته طوائف النصرارى هو ورفاق رحلته بالسلام والمؤانسة . «قرأينا من سياستهم ولين مقدهم مع المسلمين ما يوقع الفتنة فى نفوس أهل الجهل» .

وقد أهتم ابن جبير بالتجول فى المدينة وقد كانت من حواضر المسلمين الهامة فى صقلية حيث شاهد «قصر سعيد» على بعد فرسخ منها وهو مسكن للعباد من المسلمين «وحوله قبور كثيرة للمسلمين أهل الزهادة والورع» وفى أعلاه مسجد «من أحسن مساجد الدنيا بها» . مفروش بحصر نظيفة لم ير أحسن منها صنعة وقد علق فيه نحو الأربعين قنديلاً من أنواع الصفر (النحاس) والزجاج وعندما بات ليلته بالمسجد سمع لأول مرة منذ رحلته البحرية أذان الصلاة ولقى خلال إقامته كراماً زائداً من الساكنين بالقصر وقد كان لهم إمام يصلى بهم الفريضة والتراويح فى شهر رمضان . وروى، أيضاً عن قصر آخر يبعد عنه حوالى الميل ويعرف بقصر جعفر .

أما فى باليرمو فقد كان حال المسلمين أفضل عما كان سائداً فى بقية الجزيرة فلمهم بها رسم باق من الإيمان «يعمرون أكثر مساجدها ويقومون الصلاة بأذان مسموع ولهم أرباض قد أنفردوا فيها بسكناهم عن النصرارى . والأسواق معمورة بهم وهم التجار فيها ولا جمعة لهم بسبب الخطبة المحظورة عليهم ويصلون الأعياد بخطبة دعاؤهم فيها للعباسى (الخليفة) . ولهم بها قاض يرتفعون إليه فى أحكامهم وجامع يجتمعون للصلاة فيه ويحتفلون فى وقيدته (إنارتته) فى هذا الشهر المبارك . وأما المساجد فكثيرة لا تحصى وأكثرها محاضر لمعلمى القرآن» .

«ورغم هذا التسامح الذى أبداه النورمان تجاه المسلمين إلا أن ذلك لم يحل دون قيام مذابح وانتهاكات واسعة أدت إلى القضاء على كل أثر للوجود الإسلامى والحكم العربى بعد سنوات قلائل من زيارة ابن جبير ، وهو ما لاحظته عندما ذكر أن المسلمين مع هذا التسامح « غرباء عن إخوانهم المسلمين تحت ذمة الكفار ولا أمن لهم فى أموالهم ولا فى حريمهم ولا أبنائهم » .

ومن باليرمو رحلت قافلة ابن جبير إلى مدينة عربية مسلمة هى بلدة «علقمة» وهى كبيرة متمسعة فيها السوق والمساجد وسكانها وأيضاً سكان ما حولها من الضياع الممتدة على الطريق من باليرمو إليها جميعاً من المسلمين .

وكانت مدينة أطرابنش هى آخر ما عرف من صقلية من بلاد يعيش بها المسلمون وكانت لهم فيها المساجد مثلما للنصارى بها الكنائس . وقد صلى ابن اجبير العيد بها بعدما ثبت عند حاكم إطرينش (وهو مسيحى) بشهادة عدول أنه قد أقصر هلال شهر رمضان «وكان مصلاتا فى هذا العيد المبارك بأحد مساجد أطرابنش المذكورة مع قوم من أهلها امتنعوا من الخروج إلى المصلى لعذر كان لهم فصلينا صلاة الغرباء» .

ويبدو أن قرب المدينة البحرية من الشاطئ التونسى (مسيرة يوم وليلة فى البحر) كان سبباً فى علاقات وثيقة مع المسلمين أدت إلى تميزها بالتسامح حتى أنه عندما خرج أهل البلد إلى مصلاهم مع صاحب أحكامهم وانصرفوا بالطبول والبوقات لم يتعرض لهم أحد «فنعجبنا من ذلك ومن أغضاء النصارى لهم عليه» . ويذكر ابن جبير أن البحر كان محيطاً بأطرابنش من ثلاث جهات وأن أهلها يرون أنه لا بد للبحر من أن يغمرها فى يوم من الأيام .

وعلى هامش هذه الرحلة الرمضانية التى عاين فيها ابن جبير أحوال المسلمين فى صقلية عنى رحالتنا بالحديث عن خصب أراضى الجزيرة وفوران بركانها الشهير (فيزوف) وما تحفل به من عيون ونبابيع معدنية . وتعتبر ملاحظاته الدقيقة عن التأثير الباقى للحضارة الإسلامية فى تنظيم البلاط النورماندى وحياة السكان من أدق وأشمل ما كتب فى هذا المضمار .

فحسب ما دونه ابن جبير كان غليام ملك صقلية يقرأ ويكتب بالعربية و«علامته» أى توقيع «الحمد لله حق حمده» وكانت علامة أبيه «الحمد لله شكراً لأنعمه» وهو كثير الثقة بالمسلمين وبلغاً إليهم فى المههم من أشغاله حتى أن المسؤول عن مطبخه رجل من المسلمين وله أيضاً جملة من العبيد السود المسلمين ووزراؤه وحجابه الفتيان كذلك من المسلمين . «وهو يتشبه فى الانغماس فى تعيم الملك وترتيب قوانينه ووضع أساليبه وتقسيم مراتب رجاله وتقظيم أبهة الملك وإظهار زينته بملوك المسلمين» .

وجميع الجوارى فى قصر «غليام» من المسلمات حتى «أن الأفرنجية من النصرانيات تقع فى قصره فتعود مسلمة ، تعيدها الجوارى المذكورات مسلمة وهن على تكتم من ملكهن فى ذلك كله»

وقد حدثت بالجزيرة عدة زلازل مرجفة «ذعر لها هذا المشرك فكان يقول لهم ليذكر كل أحد منكم معبودة ومن يدين به» .

أما في المجتمع المسيحي ذاته فقد تركت حضارة الإسلام طابعها المميز وهو ما يبدو واضحاً من ملاحظتين أهتم ابن جبير بتسجيلهما ، الأولى منهما تتصل بتشبيد النصارى «كنائس برسم مرضاهم» تماماً كما فعل المسلمون بتشبيدهم للبيمارستانات بمصر والشام ، والثانية متعلقة بأرباء النساء .

ففى أثناء إقامته خلال شهر رمضان بمدينة باليرمو وقع الاحتفال بعيد الميلاد وخرج النصارى إلى كنيستهم الكبيرة (كنيسة الانطاكي) فاسترعى انتباهه أن «زى النصارىات فى هذه المدينة (هو) زى نساء المسلمين فصبيحات الألسن ملتحنات متنقبات . خرجن فى هذا العيد المذكور وقد لبسن ثياب الحرير المذهب والتحنن اللحفة الرائقة وانتقبن بالنقب الملونة وانتعلن الأخفاف المذهبة وبرزن لكنائسهن أو كنسهن حاملات جميع زينة النساء المسلمين من التحلى والتخضب والتعطر فتذكرنا على جهة الدعابة الأدبية قول الشاعر

إن من يدخل الكنيسة يوماً . . . يلق فيها جآذراً وظباء .

وغير تلك الشذرات العديد من الملاحظات المفيدة التى قيدها الأندلسى الأريب فى رحلته الرضائية بأنحاء جزيرة صقلية أندلس العرب الثانية بأوروبا .

ابن بطوطة فى دمشق

رمضان ٧٢٦ هـ - ٧٤٩ هـ

٥٥ طنجة ببلاد المغرب خرج محمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم اللواتى ، المشهور بابن بطوطة فى ١٧ من شهر رجب عام ٧٠٣ هـ (٢٤ فبراير ١٣٠٤ م) قاصداً حج بيت الله الحرام ، ولكن الفتى ابن الثانية والعشرين سرعان ما أحب الترحال . وتردد فى الأسفار فيما بين الأندلس غرباً وحتى أقاصى آسيا شرقاً . وقد أملى ابن بطوطة رحلاته على الأديب محمد بن جزى الكلبي ، فانتهى من كتابتها عام ١٣٥٦م وأطلق عليها اسم «تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار» .

وقد حل بدمشق الشام غير مرة ، وصادف فيها شهر رمضان من عام ٧٤٩ هـ وبما ذكره متصلاً بالشهر الكريم أن من فضائل أهل دمشق «أنه لا يفطر أحد منهم فى ليالى رمضان وحده البتة ، فمن كان من الأمراء والقضاة والكبراء فإنه يدعو أصحابه والفقراء يفطرون عنده ، ومن كان من التجار وكبار السوق صنع مثل ذلك . ومن كان من الضعفاء والبادية ، فأنهم يجتمعون كل ليلة فى دار أحدهم أو فى مسجد ويأتى كل واحد بما عنده فيفطرون جميعاً» .

ودلل ابن بطوطة على انتشار هذه الفضيلة بما وقع له مع مدرس المالكية فى دمشق وهو الشيخ نور الدين السخاوى ، وهو من أبناء قرية «سخا» بدلتا مصر كما يتضح من اسمه ، والعلة فى تقاربهما واضحة ، إذ كان الشيخ مالكياً شأنه فى ذلك شأن أغلب أهل المغرب والأندلس ومن بينهم ابن بطوطة .

فقد رغب الشيخ السخاوى أن يفطر الرحالة الطنجي عنده فى ليالى رمضان ، ومكث ابن بطوطة بالفعل أربع ليال عند مدرس المالكية ثم أصابته الحمى وأضطر للغياب عنه فإذا بالسخاوى يبعث فى طلبه ويحمله على الحضور إلى داره على ما به من المرض . ويات ابن بطوطة ليلته وعندما حاول المغادرة صباحاً قال له الشيخ أن أحسب دارى كأنها دارك أو دار أبيك أو أخيك وأمر بإحضار طبيب «وأن يصنع لى بداره كل ما يشتهيهِ الطبيب من دواء أو غذاء وأقامت كذلك عنده إلى يوم العيد وحضرت المصلى وشفانى الله تعالى مما أصابنى» .

ويذكر ابن بطوطة أيضاً أن دروس الفقه والحديث كانت تنتظم بالجامع الأموى خلال شهر رمضان

ويحضرها الجم الغفير من الفقهاء وطلاب العلم . وعند إقامته بدمشق قى رمضان عام ٧٢٦ هـ سمع ابن بطوطة جميع صحيح البخارى خلال أربعة عشر مجلساً أولها يوم الثلاثاء منتصف شهر رمضان وأخراها الثامن والعشرون منه . وكان ذلك على «الشيخ المعمر، رحلة الآفاق ملحق الأصاغر بالأكابر - شهاب الدين أحمد بن أبى طالب بن أبى النعم بن حسن بن على بن بيان الدين مقرئ الصالحى المعروف بابن الشحنة الحجازى» . ويبدو أن ابن الشحنة كان هو الآخر مالكي المذهب . إذ سمع ابن بطوطة صحيح البخارى «بقراءة الإمام المحافظ مؤرخ الشام علم الدين أبى محمد القاسم بن يوسف البرزالي الأشبيلي الأصل الدمشقى» . ولعل تلك العلة المذهبية هى التى دفعت بابن بطوطة للجلوس فى دروس ابن الشحنة .

ولم يكتف ابن بطوطة بذلك بل استمع أيضاً إلى جملة من الشيوخ خلال تلك الفترة وقد أجازوه جميعاً ومن بينهم شهاب الدين أحمد المقدسى وعبد الرحمن النجدى ويوسف المزنى الكلبي وعلاء الدين على الشافعى والشريف محبى الدين يحيى العلوى والمحدث مجد الدين القاسم بن عبد الله الدمشقى وشهاب الدين أحمد بن فلاح الاسكندرى . وكما يظهر من قائمة أسماء المشايخ المطولة أن دمشق كانت آنذاك قبلة لأهل العلم من القدس ونجد ومصر بغض النظر عن مذاهبهم ، وأن الانتماء المذهبي لابن بطوطة لم يقف حائلاً دون تتلمذه على بعض أئمة الشافعية .

ومن الملفت للنظر أن دروس رمضان بجامعة دمشق كانت تستوعب أيضاً عدداً لا بأس به من السيدات اللاتي جلسن للتدريس وأجزن رجالاً أيضاً كان من بينهم ابن بطوطة الذى ذكر أن من بين من أجازوه إجازة عامة «الشيخة الصالحة أم محمد عائشة بنت محمد بن مسلم بن سلامة الخراتى والشيخة الصالحة رحلة الدنيا زينب بنت كمال الدين أحمد بن عبد الرحيم بن عبد الواحد بن أحمد المقدسى» .

وهكذا فقد أنفق ابن بطوطة أيام ومضان بدمشق موزعاً بين استماع الدروس واستضافات أهل الكرم .



ابن بطوطة فى بلاد الروم

رمضان ٧٣٢ هـ

يهنئ ابن بطوطة بتسمية بلاد الروم تلك المناطق من آسيا الصغرى التى نجحت قبائل الترك فى الاستيلاء عليها من أبدى الروم البيزنطيين ، وقد زارها فى بداية ظهور نجم الدولة العثمانية فى المرحلة التى سبقت نجاح آل عثمان فى السيطرة على المدن التى كانت تحكمها الأسر التركية الاقطاعية وهى التى توجت بدخول السلطان محمد الفاتح إلى القسطنطينة ليضع نهاية طال انتظارها للدولة البيزنطية .

وقد أظلم شهر رمضان رحالتنا المغربى وهو بمدينة «أكريدور» التى وصفها بأنها عظيمة كثيرة العمارة حسنة الأسواق ذات أنهار وأشجار وبساتين ولها بحيرة عذبة الماء . وكان سلطان أكريدور آنذاك يعرف بأبى اسحاق بك بن الدندار بك «من كبار سلاطين تلك البلاد ، سكن ديار مصر أيام أبيه وحج وله سيرة حسنة» .

وخلال الأيام التى قضاها ابن بطوطة بالمدينة أثناء شهر رمضان لاحظ أن حاكمها «يقعد فى كل ليلة منه على فراش لاصق بالأرض من غير سرير ويستند إلى مخدة كبيرة» ويجلس الفقيه إلى جانبه يليه ابن بطوطة وبعد ذلك أرباب الدولة والأمراء . وعندما يحين وقت الافطار يؤتى بالطعام إلى مجلس السلطان «فيكون أول ما يفطر عليه ثريد فى صفحة صغيرة عليه العدس مسقى بالسمن والسكر ، ويقدمون الثريد تبركاً ويقولون أن النبى صلى الله عليه وسلم فضله على سائر الطعام فنحن نبدأ به لتفضيل النبى له» .

وأثناء الشهر الكريم واصل ابن بطوطة اشباع رغبته فى السفر والترحال فانتقل إلى مدينة «قل حصار» ، وسلطانها محمد جلىبى وهو أخو سلطان أكريدور ، ومنها إلى مدينة «لاذق» التى كان الترك يسمونها «دون غزلة» أى بلد الخنازير . ربما لكثرة نصارى الروم بها وتربيتهم للخنازير .

وقد صدم ابن بطوطة فيما عاينه من إهمال أهل المدينة لتغيير المنكر حتى فى الشهر الكريم ، إذ لاحظ أنهم «يشترون الجوارى الروميات الحسان ، ويتركونهن للفساد وكل واحدة عليها وظيف (مال) لملكها تؤديه إليه وسمعت هنالك أن الجوارى يدخلن الحمام مع الرجال فمن أراد الفساد فعل ذلك بالحمام من غير منكر عليه ، وذكر لى أن القاضى بها له جوار على هذه الصورة» .

ولم يخفف من وطأة تلك الصدمة فى الفضيلة إلا تنازع الفتیان على استضافته هو ورفاقه .

والفتوة آنذاك تعرف بالأخيات وهي روابط مهنية ذات طابع صوفى ، ويعد نظام الفتوة بمثابة الجد الأعلى لطوائف الحرف التي عرفت في ديار الإسلام ، وقد انتهى تنازع الفتيتان إلى الاتفاق على ان يقيم ابن بطوطة لبعض الوقت مع أصحاب الفتى (أخى) سنان وينتقل للإقامة بعد ذلك مع أصحاب الفتى طومان ، وقد أفرط الجميع فى إظهار كرم الضيافة بتوفير الطعام والحلوى ومتمتع الاستحمام فى حمامات الأخيات .

وحضر ابن بطوطة عيد الفطر بمدينة لاذيق ، ليحفظ لنا وصفاً دقيقاً هو الوحيد من نوعه لمظاهر الاحتفال بعيد الفطر المبارك فى بلاد الروم الأتراك .

فى صبيحة يوم العيد خرج الناس إلى المصلى يتقدمهم السلطان فى عساكره والفتيتان (الأخية) كلهم بالأسلحة . ومن أهم مظاهر الاحتفال التى عنى ابن بطوطة بوصفها بكل دقة موكب أهل الحرف والصناعات ، وهى ذات المراكب التى حرصت الدولة العثمانية على تسييرها فى الأعياد ليس فى استانبول فحسب بل وفى كل الولايات العربية التى خضعت لحكمهم ، ولا يكاد ما كان يحدث فيها يخرج فى كثير أو قليل عن السيناريو الذى سجله ابن بطوطة .

فيذكر الرحالة المغربى أن لأهل كل صناعة يشتركون فى الموكب والاعلام والبوقات والطبول والأنقار وبعضهم يفاخر بعضاً وبياهيه فى حسن الهيئة وكمال الشكبة ويخرج أهل كل صناعة معهم البقر والغنم وأحمال الخبز فيذبحون البهائم بالمقابر ويتصدقون بها وبالخبز ويكون خروجهم أولاً إلى المقابر ومنها إلى المصلى» .

ويعد أن فرغ الجمع من صلاة العيد ، دخل ابن بطوطة وصحبه ، وكانوا فى نظر أهل المدينة من الغرباء الواجب ضيافتهم ، إلى منزل السلطان ويعرف بالسلطان «يننج بك» وهو من كبار سلاطين بلاد الروم حسبما يذكر ابن بطوطة . ويسترعى الانتباه هنا اهتمام السلطان بضيافة الغرباء على ذات السماط الممدود للفقهاء والمشايخ والفتيتان بينما أفرد للفقراء والمساكين سماط على حدة وقد امتدح ابن بطوطة همته فى ذلك العيد لأنه «لا يرد على بابه فى ذلك اليوم فقير ولا غنى» .

ومما استلفت نظر ابن بطوطة فى حكام الترك فى تلك الأصقاع أنهم اعتادوا «التواضع للواردين ولين الكلام وقلة العطاء» ويبدو أن ذلك قد ترك فيه أثراً بليغاً حيث اعتاد فى رحلاته المتعددة أن يقابله حكام المسلمين بأصناف الهدايا والصلوات والعطايا حتى أنه كان يتزود فى أسفاره من عطاباه ويشترى الجوارى الحسان والخيل المسومة دون أن يفتقد المال اللازم للاتفاق فى حله وترحاله .

أما مدينة لاذيق التى أقام بها ابن بطوطة فى أواخر رمضان والأيام التالية لعيد الفطر ، نهى من أشهر مدن الترك بصناعة السجاد ولها شهرة واسعة فى إنتاج أنواع باهرة من سجاجيد الصلاة الصغيرة .

ومما ذكره ابن بطوطة عن النشاط لاقتصادى بلاذيق أن أكثر الصناع بها من نساء الروم ، خلاى

لبقية مدن آسيا الصغرى فقد كان بها من الروم كثير تحت الذمة ، أى على النصرانية ، وعليهم وظائف للسلطان من الجزية وسواها . ورغم ذلك فإن بها سبعة من المساجد لإقامة الجمعة .

واختتم رحالتنا ملاحظاته بواحدة تتصل بأغطية الرؤوس ، وقد كانت آنذاك جزءاً من الملابس ، أحد أهم علامات التمييز بين الأجناس والطوائف والملل ، إذ يقرر أن « علامة الروم بها القلاص الطوال ، منها الحمر والبيض ونساء الروم لهن عمائم كبار » .

ثم ثنى ملاحظاته الختامية بالإشارة إلى اشتهاار المدينة بصناعة « ثياب قطن معلمة بالذهب لا مثل لها ، تطول أعمارها لصحة قطنها وقوة غزلها ، وهذه الثياب معروفة بالنسبة إليها » .



ابن بطوطة فى خوارزم رمضان ٧٣٣ هـ

دخل ابن بطوطة بلاد هذه الدولة الخوارزمية وهى فى عنقران قوتها بآسيا الوسطى وحاكمها آنذاك هو السلطان المعظم محمد أوزبك خان ، وقضى فى مدينتها أغلب أيام رمضان وحضر بها عيد الفطر أيضاً ، ولم يغادر خوارزم إلا لفترة محدودة زار خلالها إقليم «بلغار» فى روسيا .

ومن تدويناته الأولى خلال هذه الرحلة ملاحظة المعية تناول فيها دأب القوم بين فيهم السلطان على الترحال من موضع إلى آخر بحسب تغير الفصول ، إذ عندما وصل إلى موضع المحلة التى يقيم بها «محمد أوزبك خان» فى غرة رمضان وجد المحلة قد رحلت فعاد مرة أخرى من حيث جاء . انتظاراً لاستقرارهم قرب مدينة الماجر على طريق «بش داغ» أى الجبال الخمسة . ويصف ابن بطوطة عاصمة السلطان المتنقلة عندما أقبلت المحلة فرأها مدينة عظيمة «تسير بأهلها فيها المساجد والأسواق ودخان المطبخ . صاعد فى الهواء وهم يطبخون فى حال رحيلهم والعربات تجرها الخيل بهم . فإذا بلغوا المنزل أنزلوا البيوت عن العربات وجعلوها على الأرض وهى خفيفة المحمل . كذلك يصنعون بالمساجد والحوانيت» .

وقد أعجب ابن بطوطة بترتيبات السلطان محمد أوزبك فى سفره ، حيث كان ينتقل فى «محلة» خاصة به مع مماليكه وأرياب دولته ، ونفس الأمر بالنسبة لكل واحدة من زوجاته (خواتينه) الأربعة . فإذا أراد أن يكون عند واحدة منهن فى محلتها بعث إليها يعلمها بذلك فتتهياً له .

وتحدث رجلنا مطولاً عن كل واحدة من الخواتين مبتدئاً بأكثرهن حظوة لدى السلطان وهى الخاتون طيطغلى وهى حسبما سمع من العارفين بأخبارها من «سلالة المرأة التى يذكر أن الملك زال عن سليمان عليه السلام بسببها» وكان السلطان يفضلها عن قريناتها «للخاصية التى فيها وهى أنه يجدها كل ليلة كأنها بكر» . والخاتون الثانية اسمها كيك خاتون ومعنى اسمها بالتركية «التخاله» والثالثة هى بيلون بنت ملك القسطنطينية «تكفور» وقد رحل معها ابن بطوطة أثناء رحيلها إلى بلاد أبيها لتضع حملها ولكنها بقيت بالقسطنطينية ولم تعد . أما الرابعة فاسمها «أزدوجا» ومعنى اسمها فى التركية «المحلة» لولادتها فى المحلة . وقد كان لكل واحدة منهن وزير (اولو خاتون) وحاجبه (كجك خاتون) .

وفى اليوم التالى لحضور السلطان دخل ابن بطوطة إليه بعد صلاة العصر وقد جمع أوزبك خان المشايخ والقضاة والفقهاء والشرفاء والفقراء . وقد وضع طعاماً كثيراً ليفطر الجميع معه ومن بين

أصناف الطعام اللحوم المسلوقة من الغنم والخيل . وعندما أهدى ابن بطرطة طبقاً من الحلواء للسلطان جعل الأخير «أصبغه عليه وجعله على فيه ولم يزد على ذلك» جرياً على عادة الترك آنذاك فى عدم أكل الحلواء ولو تحت التهديد بالموت أو الترغيب بالهدايا والمناصب . وكما هو حال الأتراك أيضاً فقد كان حكام «خوارزم» لا يعرفون إنزال الوارد ولا إجراء النفقة وإنما يبعثون له الغنم والخيل للذبح وروايا القمز (لبن الخيل) وتلك كرامتهم» .

وقد أسهب ابن بطوطة فى وصف مظاهر الاحتفال بعيد الفطر ، حيث ركب السلطان فى عساكره وركبت كل خاتون عربتها ومعها عساكرها وركب أيضاً الفقهاء والمشايع والقاضى ولكن صحبه «تين بك» ابن السلطان وولى عهده ومعهم الطبول والاعلام ليصلى بهم القاضى «شهاب الدين» .
ويعد إنقضاء الخطبة ركب السلطان وانتهى إلى برج خشب يسمى «الكشك» تتابعت بعده أكشاك ولى العهد ويقية الأبناء والأمراء ، وجلس الجميع لمشاهدة «الرمى» وهى ذات خدمة الميدان التى عنى بها «المماليك الأتراك بمصر والشام ويعقب ذلك إهداء الخلع للأمراء .

ثم يعقب تلك المراسم نزول السلطان وحريره وحواشيه إلى «باركة» وهى «بيت كبير له أربعة أعمدة من الخشب ومكسوة بصفائح الفضة الموهبة بالذهب» ويوضع على يمينها ويسارها سقائف من القطن والكتان ويفرش ذلك كله بفرش الحرير ثم يأتى الطعام على موائد الذهب والفضة وكل مائدة يحملها أربعة رجال على الأقل ، وأغلب الطعام من لحوم الغنم والخيل ويتولى «الباروجى» أى مقطع اللحوم خدمة موائد الامراء «ولهم فى ذلك صنعة فى قطع اللحم مختلطاً بالعظم فأنهم لا يأكلون منه إلا ما اختلط بالعظم» . (!!!)

ومن الطريف أن أول أيام العيد صادف يوم الجمعة ، ويقى الجميع بالمسجد فى انتظار السلطان الذى تأخر فى الحضور (!!!) وأخيراً جاء السلطان وهو يتمايل طرباً وتبسم للسيد الشريف وخاطبه ب «أطا» أى الأب !!

وكان ابن بطوطة قد غادر مملكة خوارزم خلال شهر رمضان لأيام معدودات بغرض السفر لمدينة بلغار لا لشيء سوى مشاهدة ما ذكر عنها من انتهاء قصر الليل بها وهى الظاهرة الجغرافية المعروفة فى صيف بلدان الشمال ، وقد وصلها ابن بطوطة فى رمضان هو وصحبه «فلما صلينا المغرب أفطرتنا وأذن بالعشاء أثناء إفطارنا فصلبناها وصلينا التراويح والشفع والوتر وطلع الفجر أثر ذلك» .

وكان ابن بطوطة يتطلع إلى زيارة بلاد الشمال الاسكندنافى التى سماها بلاد الظلمة ولعل ذلك بسبب الضباب الكثيف بها ، وهى على مسافة أربعين يوماً من بلغار إلا أنه عدل عن رغبته «لعظم المؤونة وقلة الجدوى» . ورغم ذلك فقد أورد بعض ما سمعه عن هذه البلاد وعدة من الطرائف . فذكر أن السفر إلى بلاد الظلمة لا يكون إلا فى عجلات صغار تجرها كلاب كبار «فإن تلك المفازة فيها الجليد ، فلا تثبت قدم الآدمى ولا حافر الدابة فيها والكلاب لها الأظافر فتثبت أقدامها فى الجليد» .

وعد الكلاب بمثابة الأدلة لهذه الطريق ولذا كان المسافرون يطعمونها أولاً حتى لا تفر منهم إذا ما رأتهم سبقوها إلى الأكل .

ويستفاد مما ذكره إن الاتجار مع بلاد الشمال كان يتم بأسلوب التجارة الصامتة ، تماماً كما كان الحال مع غرب أفريقيا . إذ يقوم التجار بوضع ما حملوه «عند الظلمة» ، فإذا كان من الغد «عادوا لتفقد متاعهم فيجدون بازائه من السمور والسنجاب والقاقم فإن أرضى صاحب المتاع ما وجده إزاء متاعه أخذه وإن لم يرضه تركه ، فيزيدونه وربما رفعوا متاعهم وتركوا متاع التجار ..

وقد علق ابن بطوطة على تلك الطريقة بأن الذين يتوجهون إلى هنالك لا يعلمون «من يبائعهم ومن يشاريهم أمن الجن هو أم من الإنس ولا يرون أحداً» .

واهتم ابن بطوطة بسرد أهم أنواع الفراء الواردة من بلاد الشمال وأثمانها أيضاً معتبراً أن أحسنها ذلك الخاص بحيوان «القاقم» وهي «شديدة البياض من جلد حيوان صغير في طول الشير وذنبه طويل يتركونه في الفروة على حاله» ، أما السمور فهو أقل جودة من فراء القاقم الذي يصل ثمنه إلى ألف دينار ببلاد الهند .

وارجع سبب ارتفاع أثمان فراء الشمال وكثرة الطلب عليه إلى أن «خاصية هذه الجلود أنه لا يدخلها القمل» وإلى أن تجار فارس والعراق فضلاً عن أمراء الصين كانوا يعتبرون إرتداء «من علامات الثراء والإمارة» ، فيجعلون منه الجلد الواحد متصلاً بفرواتهم عند العنق» .

وما أن انتهت احتفالات عيد الفطر بمحلة محمد أوزبك خان حتى شرع ابن بطوطة في الانتقال إلى بقية مدن خوارزم مثل أكك وسردق وهي لا تبعد كثيراً عن «السرا» حاضرة سلطان خوارزم .



ابن بطوطة فى دهلى

بعدها دخل ابن بطوطة بلاد الهند قصد العاصمة دهلى ليقابل سلطانها ، ملك الهند والسند «أبا مجاهد محمد شاه بن السلطان غياث الدين تغلق شاه» . ولما لم يجد السلطان فى المدينة فقد سارع إلى التجول بالمدينة التى وصفها بأنها «مدينة كبيرة المساحة كثيرة العمارة» . وهى تنقسم إلى أربع مدن متجاورات متصلات أقدمها المسماة «دهلى» وهى «من بناء الكفار وكان افتتاحها سنة أربع وثمانين وخمسائة» ويليها مدينة «سيرى» ثم «تغلق آباد» والرابعة تسمى «جهان بناء» . وذكر أن السلطان محمد شاه أراد أن يضم هذه المدن الأربع داخل سور واحد فبنى منه بعضاً وترك بناء باقية لعظم ما يلزم فى بنائه .

وقد دون ابن بطوطة مشاهداته فى الهند ومدنها المختلفة واستغرق جزءاً كبيراً من مدونات رحلته فى سرد ما شاهده بالهند من عجائب النباتات والحيوانات وأصناف البشر وما عليه الهندوس والبراهمة من عادات وطقوس شدد انتباهه بقدر ما أثارت تعجبه حيناً وسخطه أحياناً .

ويعد وصفه لطقوس إحراق الزوجة لنفسها وفاء لزوجها المتوفى من أكمل وأفضل النصوص التى دونت فى العصور الوسطى عن هذه الطقوس ، وهو ينبهنا أولاً إلى أن «إحراق المرأة بعد زوجها عندهم أمر مندوب إليه غير واجب ، لكن من أحرقت نفسها بعد زوجها أحرز أهل بيتها شرفاً بذلك ونسبوا إلى الوفاء ومن لم تحرق نفسها لبست خشن الثياب وأقامت عند أهلها بانسة ممتهنة لعدم وفاتها ، ولكنها لا تكره على إحراق نفسها ..» .

وقد لاحظ أن الهنود الكفار يستأذنون الحاكم المسلم أولاً قبل إجراء الحرق وصادف أن شاهد ابن بطوطة بنفسه عملية إحراق ثلاث من النسوة مات رجالهن فى إحدى المعارك ، فبعد أن أمضين ثلاثة أيام فى غناء وطرب وأكل وشرب كأنهن يودعن الدنيا أتت النساء إليهن من كل جهة فى صبيحة اليوم الرابع وعندئذ ركب كل واحدة منهن فرساً وهى متزينة متعطرة «وفى ميناها جوزة نارجيل تلعب بها وأقاربها معها وبين يديها الأطبال والأبواق والأنتار وكل إنسان من الكفار يقول لها أبلغى السلام أبى أو أخى أو أمى أو صاحبى وهى تقول نعم وتضحك لهم» .

ويواصل ابن بطوطة وصفه الدرامى للحرق فيذكر أن النسوة بعد وصولهن إلى منطقة كثيفة الظلال بها قباب وصهريج ماء ، نزلن إلى الصهريج وانغمسن فيه وجردن ما عليهن من ثياب وحلى فتصدقن به ثم ارتدين ثياباً من قطن خشن غير مخيظ وذهبن إلى النار الموقدة وقد ازدادت توهجاً بالقاء زيت

الجلجلان عليها ووسط صخب الطبول والأبواق تتقدم المرأة نحو النار وقد حجبت بملحفة يمسكها الرجال بأيديهم، لئلا يدهشها النظر إليها .

« فرأيت إحداهن لما وصلت إلى تلك الملحفة نزعتهما من أيدي الرجال بعنف ، وقالت لهم وهي تضحك : أبالنار تخوفونني ؟ أنا أعلم أنها نار محرقة ، ثم جمعت يديها على رأسها خدمة (تحية) للنار ورمت بنفسها فيها . وعند ذلك ضربت الأبطال والأنقار والأبواق ، ورمى الرجال ما بأيديهم من الحطب عليها ، وجعل الآخرون تلك الخشب من فوقها لئلا تتحرك وارتفعت الأصوات وكثر الضجيج » . ومن الطريف أن ابن بطوطة لما رأى ذلك كاد يسقط عن فرسه لولا أصحابه الذين تداركوه بالماء فغسلوا وجهه وانصرف قبل أن يشهد محرق بقية زميلاتها .

وقد اتفق لابن بطوطة أن صار قاضياً لدار الملك في دهلي وهو ما أتاح له القرب من بلاط السلطان ليشهد ما يدور فيه من مظاهر الاحتفال بالمناسبات الدينية وما يحاك فيه أيضاً من دسائس ومؤامرات .

وأول ما سجله رحالتنا من ملاحظات تتصل برمضان في الحاضرة دهلي هو حرص المسلمين الشديد على إقامة التراويح . ففي معرض حديثه عن «حوض الخاص» وهو خزان لمياه الأمطار على جوانبه نحو أربعين قبة يذكر ابن بطوطة أن أهل الطرب يسكنون حوله ، ويعرف موضعهم لذلك «بطرب أباد» ، ولهم «سوق هنالك من أعظم الأسواق ومسجد جامع ومساجد سواء كثيرة» وكانت النساء المغنيات الساكنات بالسوق «يصلين التراويح في شهر رمضان بتلك المساجد مجتمعات ويؤم بهم الأئمة وعددهم كثير ، وكذلك الرجال المغنون» .

أما ليلة العيد ، وما يليها من أيامه فقد أهتم ابن بطوطة بما يجري خلالها من رسوم واحتفالات ملكية، بحكم وجوده في منصب القضاء . وكما هي العادة في عصر المماليك بمصر والشام كان سلطان دهلي يرسل بالخلع والملابس الجديدة في ليلة العيد . لأزياب الدولة والأعزة والكتاب والحجاب والنقبا والقواد والعبيد وأهل الأخبار حتى يتسنى لهم حضور احتفالات العيد صباحاً وهم في أزهى حلة . ويخرج السلطان صبيحة العيد ليركب واحداً من بين ستة عشر فيلاً أعدت له وفوق كل منها شطر (راية) من «الحرير المرصعة بالجواهر ، قائمة كل شطر منها ذهب خالص وعلى كل فيل مرتبة حرير مرصعة بالجواهر» .

وينطلق الموكب الرسمي صحبة السلطان راكب الفيل ، وبه العبيد والمماليك ، وقد تزينا بالذهب والجواهر ، وكذا كبار رجال الدولة والقضاة «وكبار الأعزة من الخراسانيين والعراقيين والشاميين والمصريين والمغاربة .. كل واحد منهم على فيل وجميع الغرباء عندهم يسمون الخراسانيين ، ويركب المؤذنون أيضاً على الفيلة وهم يكبرون» .

ويستمر الموكب الذي تشارك فيه طوائف الجند بأعلامها وطبولها حتى يصل السلطان إلى باب

المصلى فيقف على بابهِ ويأمر بدخول القضاة وكبار الأمراء ، وكبار الأعزة ثم ينزل السلطان ويصلى الإمام ويخطب .

وبعد الصلاة تقام الاحتفالات بالقصر ، فينصب في فناءه الكبير باركة (خيمة) كبيرة ، ويضع شبه أشجار من حرير ملون فيها شبه الأزهار ويجعل منها ثلاثة صفوف ، ويجعل بين كل شجرتين كرسيًا ذهبياً عليه مرتبة مغطاة .

ويجلس السلطان في صدر الخيمة على سرير الملك «وهو من الذهب الخالص كله مرصع القوائم بالجواهر وطوله ثلاثة وعشرون شبراً وعرضه نحو النصف من ذلك وكل قطعة يحملها جملة رجال لثقل الذهب .. ويرفع الشطر المرصع بالجواهر على رأس السلطان» . وبعد جلوسه ينادى الحجاب والنقباء بأصوات عالية : بسم الله ، يتقدم الناس للسلام عليه وأولهم القضاة والخطباء والعلماء والشرفاء ، ثم يجلس الجميع إلى مائدة حافلة بالأطعمة ويوزع السلطان نقوداً ذهبية على كل من للسلام عليه يأتي للسلام عليه ، وتأتي هذه الدنانير من كل من بيده قرية منعم بها عليه يضعها في صرة مكتوب عليها اسمه ويلقيها في طست ذهب ليوزع السلطان منها وبعد الطعام يأتي أهل الطرب ، فأولهم بنات الملوك الكفار من الهنود المسيبات في تلك السنة فيغنين ويرقصن ويهيهن السلطان للأمراء والأعزة ثم يأتي بعدهن سائر بنات الكفار فيغنين ويرقصن ويهيهن لإخوانه وأقاربه وأصهاره وأبناء الملوك .

وتتم هذه الاحتفالات بعد عصر أول أيام العيد في إيوان القصر المعروف بالمشور وسط رواتح البخور التي تنطلق من المبخرة العظمى «وهي شبه برج من خالص الذهب منفصلة فإذا أرادوا اتصالها وصلوها وتحمل القطعة الواحدة منها جملة من الرجال . وفي داخلها ثلاثة بيوت يدخل فيها المبخرون يوقدون العود القمارى والقاقلى والعنبر الأشهب والجاوى حتى يعم دخانها المشور كله . ويكون بأيدي الفتيان براميل الذهب والفضة مملوءة بماء الورد وماء الزهر يصبونه على الناس صباً» .

وخلالاً لسائر بلاد الإسلام تستمر احتفالات عيد الفطر وكذلك عيد الأضحى لمدة سبعة أيام يتكرر في اليوم الثانى منها ذات المظاهر الاحتفالية التي تمت في اليوم الأول من طعام وغناء ورقص وفي اليوم الثالث يزوج السلطان أقاربه وينعم عليهم وفي اليوم الرابع يعتق العبيد ويؤجل عتق الجوارى إلى اليوم الخامس ، ثم يأتي في اليوم السادس ليزوج العبيد بالجوارى وفي اليوم السابع يكون ختام الاحتفالات باعطاء الصدقات لكل فقير يقصد القصر .



ابن بطوطة فى جزر المالديف أو ذببة المهمل

ملحظ ابن بطوطة رحالة فى جزائر ذببة المهمل (جزر المالديف حالياً) قبل مقدم شهر رمضان بأيام قلائل ، قضاها جميعاً فى التنقل بين الجزر وملاحظة السلوك الاجتماعى لسكانها وما يزرعونه من أشجار ونباتات

واسترعى انتباهه كثرة المساجد الحسنة فى هذه الجزائر ، ومعظمها من الخشب وميل أهلها إلى النظافة والتنزه عن الأقدار حتى أن أكثرهم « يغتسلون مرتين فى اليوم تنظفاً لشدة الحر بها وكثرة العرق ، ويكثرون من الأدهان العطرية كالصندلنة وغيرها » ومن عادات أهلها أنهم إذا صلوا الصبح أتت كل امرأة إلى زوجها أو ابنها بالمكحلة وبماء الورد فتصقل بشرته وتزيل الشحوب عن وجهه وحسبما يستفاد مما أورده ابن بطوطة فقد كان زيهم هو « الفوطه » المعروفة فى بلاد الهند واليمن ولكنهم لا ينتعلون فجميعهم « حفاة الأقدام من رقيق ووضع » وسبب ذلك فيما يبدو أن أزقتهم « مكنوسة نقيه تظللها الأشجار . فالماضى بها كأنه فى بستان » ومع ذلك كانت توضع عند أبواب الدور آنية الماء ليغسل فيها كل داخل إلى الدار رجليه قبل أن يمسخها بحصير غليظ من الليف عند الباب .

وفى هذه الجزر تزوج ابن بطوطة بعد قصة هى الغاية فى الطرافة إذ عرض عليه أحد وزراء الجزر ويعرف باسم « سليمان » أن يتزوج بابنته ولكن ابن بطوطة تطير منها لوفاة زوجين لها قبل أن يدخلها بها وعزم على الرحيل فطالبه الوزير بالهدايا التى أرسلها له وبالجارية التى وهبها له وكانت تعرف باسم « قل ستان » أى زهرة البستان وكانت تعرف الفارسية . وعندئذ لم يجد الرحالة الأديب مفرأ من الإقامة وقبل على مضض الزواج بابنة الوزير فلما كانت ليلة الزفاف لم يحضر الوزير لأن العروس رفضت الزواج بابن بطوطة فحمد الله وقبل الزواج بإحدى سيدات القصر عوضاً عنها « فكانت من خيار النساء وبلغ حسن معاشرتها أنها كانت إذا تزوجت عليها تطيبنى وتبخر أثوابى وهى ضاحكة لا يظهر عليها تغير » .

وكما حدث فى دهلى تولى ابن بطوطة القضاء فى ذببة المهمل ، فحاول قدر ما استطاع تغيير بعض عادات السكان التى كانت مترسخة فيهم من أيام الكفر وأصاب نجاحاً فى منع المطلقات من البقاء فى بيوت أزواجهن وإلزام أهل الأسواق بالتوجه إلى المساجد عند سماع الأذان . ولكنه فشل

فشلا ذريعاً في منع النسوة من ترك صدورهن عارية ، وقنع منهن بتغطية هذا الجزء إذا ما أردن التقاضى فى مجلسه .

وثمة ملاحظة هامة اتحفنا بها ابن بطوطة وهى أن أهل هذه البلاد على مذهب مالك السائد فى بلاد المغرب لأن حاكم الجزيرة أسلم على يدى مغربى اسمه « أبو البركات البربرى » وكان حافظاً للقرآن الكريم . وتبعه أهل الجزيرة بعد أن نسب إليه دفعه لعفريت من الجن كان يضرب الجزيرة فى كل شهر وذلك بفضل تلاوته للقرآن عند شاطئ البحر .

ومثلما نجد الآن فى العديد من بلدان آسيا ، فقد كانت امرأة هى التى تحكم الجزيرة وعبد ابن بطوطة ذلك من عجائب الجزر وهى السيدة خديجة بنت السلطان جلال الدين عمر بن السلطان صلاح الدين صالح البنجالى أما زوجها فهو الوزير عبد الله بن محمد الحضرمى . ونظراً لطرافة ذلك فى نظر مغربى مثل ابن بطوطة فقد اهتم بأن يورد نص الدعاء لها فى خطبة الجمعة . أن يقول الخطيب « اللهم أنصر أمتك التى اخترتها على علم على العالمين . وجمعتها رحمة لكافة المسلمين » .

عندما نزل ابن بطوطة إلى الجزيرة أخرج له نبات التانبول وماء الورد وذلك هو الكرامة عندهم وبعث الوزير إليه بكسوة وضيافة فيها الأرز والسمن وجوز التارجيل والعسل المصنوع منه فضلاتين مائة زلف ودعة للنفقة مقام النقود . وما هى إلا أيام قلائل حتى دخل شهر رمضان فأرسل الوزير فى طلب ابن بطوطة فوجد لديه « الامراء والوزراء » ، وأحضر الطعام فى مواعد يجتمع على المائدة طائفة .. وطعامهم الأرز والدجاج والسمن والسمنك والموز المطبوخ ويشربون بعده غسل النار جيل مخلوطاً بالأفاوية وهو يهضم الطعام .

ولم يكتف الوزير بذلك بل أعطى للرحالة المغربى داراً واسعة ليضيف فيها المسلمين الذين قدموا على الجزيرة وهم من « فقراء العرب والعجم وبعث له أيضاً . « خمساً من الغنم وهى عزيزة عندهم وبعث الأرز والدجاج والسمن والأبازير » فبعث ذلك كله إلى دار الوزير فطبخ لى بها ، وبعث الفرش وأوانى النحاس » وأقطر الجميع بعد ذلك بدار السلطانة مع الوزير ولما كانت الوليمة معدة للمتصوفة الفقراء الواردين على « ذببة المهل » إكراماً لابن بطوطة فقد حضرها الوزير وأرباب الدولة « وكان كل من يأتى من الأمراء والوزراء يسلم على الوزير ويرمى بثوب غير مخيط حتى اجتمع مائة ثوب أو تحرها فأخذها الفقراء » .

وكان من أمرهم بعد تناول الافطار أن يجلس الجميع لسماع القرآن أولاً ثم أخذ المتصوفة فى السماع والرقص على عادتهم « وأعدت النار فكان الفقراء يدخلونها ويطأونها بالأقدام ومنهم من يأكلها كما تؤكل الحلوى إلى أن خمدت » .

ولما تم شهر رمضان بعث إليه الوزير بكسوة . وخرج الجميع إلى المصلى فى صباح يوم العيد « وقد زينت الطريق التى يمر الوزير عليها من داره إلى المصلى وفرشت الثياب فيها وكل من له على

طريقه دار من الأمراء والكبار قد غرس عندها النخل الصغار من النار جيل وأشجار الفوفل والموز ومد من شجرة إلى أخرى شرائط وعلق منها الجوز الأخضر .

وأثناء مرور موكب الوزير يقوم أصحاب الدور بالقاء أثواب الحرير أو القطن على رجليه فيأخذها العبيد مع الودع (النقود) الذي يجعل على طريقه أيضاً ، ذلك كله والوزير سائر في طريقه وفي رجليه النعل وجميع الناس سواء حفاة والأبواق والطبول بين يديه والعساكر أمامه وخلفه وجميعهم يكبزون حتى يصلوا إلى المصلى أما ملابس الوزير فهي « فرجة مصرية من المرعز وعمامة كبيرة وهو متقلد فوطة حرير وفوق رأسه أربعة شطور» أي قطع من الحرير أو القماش .

وبعد الفراغ من الصلاة وخطبة العيد ركب الوزير « محفة» وقام الأمراء والوزراء برمي الثياب أمامه على عادتهم ، ودخل إلى القصر استعداداً للوليمة التقليدية . وفي القصر مدت الموائد بالطعام ثم الفوفل والتانبول (نباتات تزكى رائحة الفم وتساعد في هضم الأكل) وبد ذلك أتى « بصحفة صغيرة فيها الصندل ، فإذا أكلت جماعة من الناس تلتطخوا بالصندل» .

ومن الغريب أن نجد تأثيرات مصرية واضحة في هذه الجزر البعيدة ، ليس فقط في قصاها من المصريين أو الملابس المصرية (الفرجيات) التي ترمى الوزير بها في يوم العيد بل وفي عادة أكل الأسماك المملحة في أول أيام العيد وهي عادة مصرية شاهدها وعابنها المؤرخون والرحالة بمصر خلال العصور الوسطى وما زالت حية ماثلة للعيان إلى يومنا هذا ، فيذكر ابن بطوطة أنه رأى على بعض طعامهم يومئذ « حوتاً من السردين مملوحاً غير مطبوخ أهدى لهم من كولم وهو في بلاد الملببار كثير» فأخذ الوزير سردينه وجعل يأكلها وابن بطوطة ينظر إليه ، فطلب منه أن يأكل واحدة لأنها أي السردينه ليست ببلاد ذببة المهل فاعتذر ابن بطوطة لأنها غير مطبوخة فرد الوزير بأن السردين مطبوخ، ولكن ابن بطوطة أصر على موقفه مؤكداً للوزير أن البلاد التي جاء منها يوجد بها هذا النوع من الأسماك .



ابن بطوطة فى مالى

لقبلة أن يضع ابن بطوطة عصا التسيار ويقر له القرار فى بلده طنجة ساقته الأقدار وولعه بالأسفار إلى مملكة «مالى» أكبر وأشهر الممالك الإسلامية التى تعاقبت على حكم غرب أفريقيا المعروفة لدى المسلمين ببلاد السودان الغربى أو بلاد التكرور .

وقد وصل ابن بطوطة إلى هذه المملكة من مصر عبر السودان ونزل بمحلة «البييض» بمدينة مالى أى الحى الذى كان ينزل به العرب من مغاربة ومصريين ويمنيين وجميعهم فى عرف السكان الافارقة من البييض . وخلاقاً لما لقيه ابن بطوطة فى معظم ديار الإسلام من كرم وبحبوحة العيش فقد لازمه سوء الحظ منذ الأيام الأولى لإقامته فى مالى . فبعد عشرة أيام من وصوله أرسلت له بنت عم السلطان «عصيدة تصنع من شئ شبه القلقاس يسمى «القافى» وهى عندهم مفضلة على سائر الطعام» ولما أكل منها هو وخمسة من رفاقه أصابهم المرض وتوفى أحدهم وأغمى على ابن بطوطة أثناء توجهه لأداء صلاة الصبح . عندئذ لجأ الرحالة المغربى إلى أحد جيرانه فى محلة البييض وكان مصرياً سائلاً إياه دواء مسهلاً «فأتى بشئ يسمى «بيدار» وهو عروق نبات . وخلطه بالأنسيون والسكر ولته بالماء فشرته وتقبأت ما أكلته مع صفراء كثيرة وعافانى الله من الهلاك ولكنى مرضت شهرين» .

وعند حلوله بمالى كان حاكمها هو السلطان سليمان «أو منسا سليمان» الذى وصفه بأنه «ملك بخيل لا يرجى منه كبير عطاء» . ذلك أنه بعث إليه ضيافة مع رجال القاضى يصف ابن بطوطة مقدمها بطريقة لا تخلو من السخرية اللاذعة إذ جاءه «ابن الفقيه عبد الواحد من داره مسرعاً حافى القدمين» فدخل على وقال : قم قد جاءك قماش السلطان وهديته . فقامت وظننت أنها الخلع والأموال . فإذا هى ثلاثة أقراص من الخبز وقطعة لحم بقرى مقليه .. وقرعة فيها لبن رائب ، فعندما رأيتها ضحكتم وطال تعجيبى من ضعف عقولهم وتعظيمهم للشئ الحقيقير .

ولما دخل شهر رمضان كان حنق ابن بطوطة على السلطان البخيل قد بلغ مداه فخطب ترجمان السلطان المدعو دوغا «وهو من أفاضل السودان وكبارهم» واتفق معه على أن يفتح منسا سليمان فى أمر إعراضه عن القيام بواجب الضيافة والكرم تجاه ابن بطوطة . «فجلس فى أوائل رمضان وقمت بين يديه وقلت له : إنى سافرت فى بلاد الدنيا ولقيت ملوكها ، ولى ببلادك أربعة أشهر ، ولم ترضنى ولا أعطيتنى شيئاً فماذا أقول عنك عند السلاطين» .

ولم يكن هناك أعجب من جرأة ابن بطوطة سوى إجابة منسا سليمان الذى زعم أنه لم يره أو يعلم

به . فقام القاضى وابن الفقيه وقد رأيا فى بخله ما يس سمعتهم لدى الرحالة الشهير ، فردا عليه وقال « إنه قد سلم عليك وبعثت إليه الطعام » فأسقط فى يده ، واضطر إلى أن يأمر له بدار أنزل بها ونفقة تجرى عليه » ثم أعطى القاضى والخطيب والفقهاء مالا ليلة سبع وعشرين من رمضان يسمونه الزكاة وأعطاني معهم ثلاثة وثلاثين مثقالاً وثلاثاً (من الذهب) وأحسن على عند سفرى بمائة مثقال ذهباً » ورغم فرحة ابن بطرطة بتلك الهدية الذهبية ، فإن المعروف لدى أهل ذلك الزمان أن بلاد السودان الغربى كانت هى المصدر الرئيسى لتبر الذهب . وكان بها رخيصاً حتى أنه يباع مقابل الملح وزناً بوزن .

أما رسوم منسا سليمان فى أول أيام عيد النضر فهى لا تختلف كثيراً فى جوهرها عما شاهده ابن بطرطة فى سائر ديار المسلمين .

فى الصباح خرج الناس إلى المصلى وهو قريب من قصر السلطان وعليهم الثياب البيض الحسان وفى هذا اليوم لبس السلطان « الطيلسان » . لأن أهل السودان (الغربى) لا يلبسون الطيلسان إلا فى العيد ماعدا القاضى والخطيب الفقهاء فأنهم يلبسونه فى سائر الأيام ولعل ذلك راجع إلى تأسيهم بحال أقرانهم فى مصر أثناء الحكم الفاطمى . خاصة وأن الفاطميين كانوا يسيطرون على الشمال الافرقى ويهيمنون على طرق التجارة مع بلاد السودان . ويسير الناس عند خروجهم للصلاة بين يدى السلطان وهم يهللون ويكبرون « وبين يديه العلامات الحمر من الحرير ونصب عند المصلى خباء فدخله السلطان وأصلح من شأنه ثم خرج إلى المصلى فقضيت الصلاة والخطبة » .

وبعد انقضاء الصلاة وربما كان ذلك جرباً على عادة الدعاة الأولى فى تلك الاصقاع ينزل الخطيب ليلجلس أمام السلطان ويتكلم معه مطولاً « وهناك رجل بيده رمح يبين للناس بلسانهم كلام الخطيب وذلك وعظ وتذكير وثناء على السلطان وتحريض على لزوم طاعته وأداء حقه » .

وبعد إلى هذا الفاصل الخطابى الذى لم ير ابن بطرطة مثيلاً له فى غير مالى يغادر منسا سليمان المصلى إلى الجلولس بقصره بعد صلاة العصر ، فيجلس على مصطبة تحت شجرة لها ثلاث درجات وتسمى « النبى » وحوله السلحدارية بأنواع السيوف والرماح والدروع والدبابيس وهى جميعاً معللة بالذهب والفضة « ويقف على رأسه أربعة من الامراء يشردون الذباب وفى أيديهم حلية من الفضة تشبه ركاب السرج » ويحضر هذا المجلس القاضى والخطيب والفرارية أى الامراء . وفى الاحتفال بالعيد يقوم الترجمان « دوغا » بالعبء الأكبر ، إذ يأتى بتسانه الأربع وجواريه وهن نحو مائة « وعليهن الملابس الحسان وعلى رؤوسهن عصائب الذهب والفضة » . ويتصب له كرسى يجلس عليه ويضرب « آلة من قصب وتحتها قريعات » . ويغنى بشعر يمدح السلطان فيه ويذكر غزواته وأفعاله وتغنى النساء والجوارى معه ويلعبن بالقصى ، ويساعده فى هذا الغناء ثلاثون من غلمان يرتدون عباءات حمراء وعلى رؤوسهم « الشواشى البيض » وقد تقلد كل منهم طبله يضرب عليها .

وبعد أن ينتهى « دوغا » يأتى بعض الصبيان ليؤدوا بعض الحركات البهلوانية « ولهم فى ذلك رشاقة وخفة بديعة ويلعبون بالسيوف أجمل لعب ويلعب دوغا بالسيف لعباً بديعاً » ، وفى أعقاب ذلك يأمر السلطان لدوغاً بماتى مثقال من تير الذهب (حوالى ٨٥٠ جراماً) ، ولا يعطى بقية الامراء (الفرارية) عطاياهم إلا فى اليوم التالى .

والواقع أن هذا الاحتفال الرسمى يشبه فى جانب منه (الانشاد ولعب الصبيان خاصة) ما كان يجرى فى البلاط الفاطمى بالقاهرة .

أما الاحتفالات ذات الطابع الشعبى وهى حسبما يذكر ابن بطوطة قديمة سابقة على الإسلام ، فتبدأ بعد انتهاء عروض دوغا ، ويؤديها شعراء شعبيون بعد شعرهم الذى يلقونه بمشابة وعظ للسلطان ، كأن يقولوا له « أن هذا البنى الذى تجلس عليه جلس فوقه من الملوك فلان وكان من أحسن أفعاله كذا ، وفلان وكان من أفعاله كذا ، فأفعل أنت من الخير ما يذكر بعدك » .

ولا يؤدى الشعراء دورهم هذا على طريقة الشعراء العرب بل على ذات النسق الافريقى الأسطورى ، إذ يدخل كل واحد منهم « فى جوف صورة مصنوعة من الريش تشبه الشقشاق (طائر) وجعل لها رأس من الخشب له منقار أحمر كأنه رأس الشقشاق . ويقفون بين يدى السلطان بتلك الهيئة المضحكة فينشدون أشعارهم » . ويعقب فراغ الشعراء المختفين داخل هذه الهيئات الكاريكاتيرية صعود كبيرهم على درج البنى ليضع رأسه فى حجر السلطان . ثم يصعد إلى أعلى « البنى » فيضع رأسه على كتف السلطان الأيمن ، ثم على كتفه الأيسر وهو يتكلم بحديث لم يفقهه ابن بطوطة أو يهتم بالاستفسار عنه ، ويكون نزوله إيذاناً بانتهاء احتفالات سلطان مالى بأول أيام عيد الفطر .



العباشى فى القاهرة

١٠٧٢هـ

٩٨٤ عبد الله بن محمد بن أبى بكر العباشى (نسبة إلى إحدى قبائل البيرى) وقد زار مصر غير مرة وهو فى طريقه للحج ضمن قافلة الحج المغربى . وقد ترك لنا مذكراته فى رحلاته للحج وهى التى نشرت باسم الرحلة العباشية . وإن لم يهتم بإيراد أى ملامح للحياة الاجتماعية فى البلاد التى مر بها من الجزائر إلى طرابلس الغرب مكتفياً بتسجيل ملاحظاته اليومية فى القاهرة وبلاد الحجاز .

وفى رحلته الأخيرة إلى مصر عام ١٠٧٢هـ (١٦٦٢م) . أحصى العباشى مدة سفره من «مصراته» إلى بر إمبابة على الضفة الغربية للنيل ، فوجدها خمسين يوماً منها خمسة أيام إقامة والباقى قضاها فى السفر . وقد وصل صحبة بعض حجاج المغاربة الذين لم يأبهوا لأخبار الطاعون الذى اجتاح مصر . ونزل الجميع خارج إمبابة «فى يوم الأحد الخامس والعشرين من رمضان» .

ويزدخلى مادونه العباشى عن محطته الأولى بمصر فى عداد أنهار مسافر الصحراء الجرداء بخصب وادى النيل ووفرة الغذاء الرخيص فى قرهاالمتصلة العمران دون إنقطاع حتى أنه يذكر أن الناس (أى قافلته) قد تسارعوا لشراء الفاكهة واللحم «لبعد عهدهم بذلك» .

ويقص العباشى إمبابة فى إحدى سنوات إنخفاض فيضان النيل بأنها «مدينة على ساحل النيل لها أسواق ووكانل ومساجد على هيئة ما فى القاهرة وهى فى الجانب الغربى فى مقابلة مدينة بولاق بالجانب الشرقى . وأقمنا بها يوماً فى أرغد عيش شبعاً ورأياً وكيف لا ونحن على ساحل النيل الذى هو أشرف الأنهار الأربعة الخارجة من الجنة وأثر بركته ظاهر للعيان فى مائه وترابه وقراه ومدائه بحيث لا يوجد بلد أوسع مزارع وأكثر خصباً مع اتصال العمارة نحو الشهر» .

ويقصى العباشى فى رحلته أن عادات الفلاحين فى قرى النيل (غربى الدلتا والوادى) أن يخرجوا لملاقة حجاج المغاربة ليتخذوا منهم الأصحاب حتى يودعوا عندهم الإبل ويتركوها «أمد الإقامة طلوعاً ورجوعاً» .

وفى السادس والعشرين من رمضان تحرك العباشى ورفاقه من إمبابة قاصدين ميناء القاهرة النيلية (بولاق) فهاله أن «وجد النيل فى غاية ما يكون من النقصان وقد انحسر الماء عن بقاع كثيرة فى وسطه» وكان قد عاين قبل ذلك بأيام قلائل ارتفاع الفيضان حتى أغرق الطرق بين بعض قرى الدلتا . وهذه الظاهرة كثيراً ما يتكرر وصفها فى كتب مؤرخى العصور الوسطى حين يقولون «وطلع

مد النيل ثم انحط سريعاً .

وعند وصوله إلى بولاق اكترى العياشى وحجاج المغاربة ثلاثة من الإبل العجيبة « وإن حمر في ذلك على الحمالين لقسوتهم عليها . « وقد سخر الله تعالى الإبل لهم ونزع الرحمة من قلوبهم يحسروا عليها القناطير المنقطرة من الأمتعة وأحمال الذهب والتبر وغير ذلك حتى لا يظهر من اجمل إلا رأسه . »

وفى القاهرة لاحظ العياشى أن الوباء فاش فيها كما أبلغت قافلة الحج المغربى ولكنه « ضعيف حيث كان يصلى فى الجامع الأزهر كل يوم على عشرة » من الموتى فقط !! ولم يستطع الرحالة المغربى أن يحقق أمنيته بالإقامة قرب الجامع الأزهر لإنشغال الدور بالحجاج من الشمال الاقربى وقد كبر أحرص الناس على الاحتفاء برمضان فى الأزهر . فطرح أمتعته هو وأصحابه « بوكالة قايتباى العبد يقصد وكالة الغورى) بباب الأزهر الغربى وجعلنا نتطلب داراً للسكنى فما وجدنا إلا آخر النهار يحمل يقال له اليردبكية وجدنا هناك داراً واسعة فيها عدة مساكن إلا أنها بعيدة عن الأزهر بنحو أربعمان خطوة قريبة من مشهد الحسين رضى الله عنه . »

ورغم أن العياشى ورفاقه قد جهدوا أنفسهم طيلة النهار فى البحث عن هذه الدار وحملوا إليها أمتعتهم بل ودفعوا أجرة سكنها مقدماً وكانت ثلاثة وسبعين ونصفاً من الفضة . إلا أنهم باتوا تلك الليلة بالجامع الأزهر لأنها ليلة السابع والعشرين من رمضان وقد لاحظ أن « كل الليالى بذلك المسجد كليله الفرد لأنه معمور بالذكر والتلاوة والتعليم أثناء الليل وأطراف النهار ولا تنقطع منه العبادة ليلاً ولا نهاراً ولا صيفاً ولا شتاء فهو عديم النظر فى مساجد الدنيا بأجمعها حاشا المساجد الثلاثة لما لها عند الله من أعظم المزايا » وهو يعنى بذلك المسجد الحرام والمسجد النبوى والمسجد الأقصى .

ولما كان رمضان هو شهر القرآن وفيه يقبل الناس على قراءته وتجويده فقد هب العياشى لزيارة « شيخ القراء بالقاهرة ورئيس أهل التجويد بلا مراجعة الشيخ سلطان » وقد سلم الشيخ عليه ودعا له وكان ذلك هو غاية ما أراه العياشى وقصاد الحج المغاربة من تلك الزيارة .

ومن الملاحظات الطريفة التى أوردها العياشى وهو يصف سلطان شيخ القراء أن فى خلقه ندم حتى أنه لا يترك أحداً يقبل يده . وإذا ما ألح أحد فى طلب الدعاء منه « انتهره ويمضى ويتركه » . ويحتمل للطلبة الذين يقرأون عليه أدنى غلطة تقع منهم بل يبالغ فى التفرغ والتوبيخ بل ربما زاد إلى الشتم .. والناس يحتملون ذلك منه لانفراده بذلك مع تقشفه وورعه وصبره على ملازمة وظائف العبادة . »

ويسجل العياشى فى ندم وأسى أنه لم يحضر إلى الأزهر فى يوم التاسع والعشرين من رمضان لأسباب ثلاثة أولها لبعد منزله عن المسجد وتلك واحدة من الغرائب إذ استكثر الأربعمائة خط وهو الذى سار فى الصحراء خمسة وأربعين يوماً دفعة واحدة من مصراته إلى مصر . والسبب الثانى

لحقه من الكسل بسبب الصوم .

أما السبب الثالث فكان ذلك اللفظ الذى ثار فى القاهرة حول تعيين أول أيام العيد . فقد أشيع ما ذكره البعض نقلاً عن المنجمين المعدلين بالقاهرة فى ذلك اليوم «بأن الهلال يرى ليلة الثلاثين فىكون الشهر تسعاً وعشرين .. وانتشر ذلك فى الناس واعتقدوه حتى قيل أن الباشا طلب من قاضى العسكر الخبلى أن يحكم بذلك فأبى جزاءه الله خيراً وقال لا حكم حتى يرى الهلال» .

وبالفعل صعد قاضى الشافعية مع الشهود العدول فى ليلة الثلاثين إلى أعلى المئذنة ويعنى بذلك مئذنة المنصور قلاوون بالنحاسين ويقى الجميع فوقها من قبيل الغروب حتى انتشر الظلام « فلم يروا شيئاً فأوقدوا المصابيح فى المئذنة كما هى عادتهم فى ليالى الشهر كلها فعلم الناس أن الغد من رمضان وكذب الله أقوال المنجمين» .

وبعد أن أتم العياشى صيام رمضان بالقاهرة نجده يجرى على عادة المصريين فى الخروج لزيارة المقابر ، فيخرج عشاء إلى القرافة الصغرى ، ولكنه لم يستكمل مراده من الزيارة فعاد للقاهرة لشدة الحر من ناحية ، ومن ناحية أخرى « لكثرة الزحام بالمقابر لأن عادة نساء مصر أن يخرجن ليلة العيد ويومه إلى المقابر ويبقين هنالك برهة من الزمان» ورغم أن العياشى قد ذهب إلى القرافة بغرض الزيارة والتبرك بمقابر الأولياء والمعتمدين إلا أنه لم يجد أى غضاضة فى أن يصف عادة المصريين بأنها «عادة مذمومة فى سائر الأيام فما بالنا بيوم العيد إنه يوم أكل وشرب ومرح وسرور وزيارة القبور تذكر بالآخرة وتثير فى القلب حزناً» .

ولم يفت العياشى أن يصف لنا ما يجرى بالقاهرة فى أول أيام العيد وخاصة تكبير الناس بالذهاب إلى صلاة العيد وقد حضرها العياشى فى الجامع الأزهر حيث خطب الخطيب «خطبة حسنة جلها فى أحكام زكاة الفطر» . وبعد فراغ الناس من الصلاة والخطبة أخذوا يتزاورون ووقف المشايخ لزيارة الناس وقابل العياشى العديد من المغاربة الذين يتلقون العلم بالأزهر .

وعندما ذهب الرحالة المغربى صحبة رفاقه لزيارة الشيخ إبراهيم الميمونى قدم لهم «كعكاً حسناً» وتلك عادة مصرية تعود إلى العصر الفاطمى على أقل تقدير وما زالت مرعية إلى اليوم . وقد ظن العياشى أن فى ذلك مخالفة لعادة الوم من أهل مصر الذين «يتكلمون بينهم بشراب البن الذى يسمونه القهوة» ولعله فى ذلك لم يفرق بين تقاليد يوم العيد والعادات اليومية .

وقد انتهز الرحالة المغربى فرصة الحديث عن القهوة ليبين أنها فى بلاده «ليست بطعام ولا دواء ولا شهوة» وأنها أيضاً موضع جدل عنيف فى المجتمع المصرى وقد انقسم العلماء فى شأنها بين التحريم والإباحة وعزز كل فريق حججه بالنظم والنثر وإن كان «أكثر العلماء مانئين فيها إلى الإباحة وترشح قولهم بفعل أكثر الصوفية مع تورعهم فى المطاعم والمشارب زاعمين أنها تعين على السهر فى العبادة وستعين بها الطلبة كثيراً فى المطالعة الليلية ولا شك أنها تزيد ما يحصل فى الرأس من

تدويخ بسبب السهر أو خلو المعدة صباحاً فإذا شربها الإنسان وجد في أعضائه نشاطاً» .
ومع معارضته الظاهرة لشرب القهوة فقد أشار العياشى إلى وجود مقاه عامة يعد فيها شراب البن
الذى ذاع وانتشر في القاهرة لفوائده التى ذكرها فضلاً عن ميل الناس لتقليد الأمراء فى شربها . -
وآخر ما عاينه العياشى من مظاهر الاحتفال بعيد الفطر بالقاهرة كانت تلك العروض المفتوحة التى
كانت تجرى أسفل القلعة (ميدانها الحالى) ويشارك فيها المشعوذون والبهلوانات الذين يسيرون على
الخيال «ومن ضاهاهم من أصحاب اللعب بأنواع الحيوانات كالدب والحمير والطيوس والكلاب» .
ويعقب على ذلك فيقول «وبالجمله فأهل مصر لهم ذكاء زائد وحيل عربية قد سخرت لهم أنواع
الحيوانات فقليل من أصناف الحيوانات ما لا يوجد عندهم مسخراً» .

« « «

جيار دى نرفال فى استانبول

«جيار دى نرفال» . رحالة فرنسى تنقل بعيد الثلث الأول من القرن الماضى بين بعض ولايات الدولة العثمانية . وذلك أثناء حكم السلطان عبد المجيد ، ودون مشاهداته فى مجلد ضخم أسماه «رحلة إلى الشرق» .

وحضر نرفال فى استانبول شهر رمضان من عام ١٢٤٩ هـ (١٨٣٣م) . ودون فى كتابه بعض ملاحظات متفرقة نستنتج منها أن حاضرة الدولة العثمانية كانت شديدة الاحتفاء والاهتمام بمقدم الشهر الكريم مراعية لحرماته فى الغالب الأعم ، رغم أنها تضم حسبما يذكر نرفال «أربعة شعوب مختلفة تعيش فيها دون أن يكون كرهها بعضها للبعض كبيراً ، فالأتراك والأرمن واليونانيون واليهود . أبناء أرض واحدة ويتحملون بعضهم البعض أكثر مما يتحمل فى بلادنا (فرنسا) أبناء المقاطعات المختلفة أو أفراد الأحزاب المختلفة بعضهم البعض» . أنه من المشير حقاً أن تلتزم هذه المدينة الحافلة بأصناف البشر من كل حذب وصوب وديانة بتقاليد رمضان رغم أن كل مظاهر الحياة فيها كانت تنبئ عن توجهها شطر الغرب الأوروبى تستلهم منه قشور الحضارة الاستهلاكية حتى من قبل أن يجعل أتاتورك من هذا التحول التاريخى حقيقة سياسية . فلقد شاهد الفرنسى ليلة الرؤية ، مدينة استانبول وهى ترفل فى أضواء مأذن المساجد وقبابها احتفالاً برؤية هلال رمضان ، وعندما أطل عليه صباح أول أيام الشهر كانت المدينة ، مثل مدن الشرق جميعها ، قد أغلقت كل حوانيتها ، بما فى ذلك حوانيت غير المسلمين الذين لم يجدوا من يبتاع شيئاً منهم فى الأوقات المبكرة من النهار ، وشتان الفارق بين مارآه نرفال فى آخر أيام شعبان من حركة فى الأسواق ، وما صدمه من سكون فى أول رمضان ، حتى أن السوق المصرية التالية لسوق السمك كانت مغلقة إغلاقاً محكماً رغم أن سلعها تقتصر على التوابل والأصباغ والمنتجات الكيماوية . وفى مبالغة أدبية يلخص نرفال حال طرقات استانبول فى أنها «لم يكن يسكن الطرقات إلا الكلاب وقد أدهشها خلال الأيام الأولى من رمضان أنها لم تعد تتلقى غذاها اليومى من حانوت مجاور للسوق يشغله أرمينى» . وقد تناول نرفال طعام الغداء فى حانوت هذا الأرمينى الذى اشترى طعامه منذ المساء وإلا كان اضطر للعودة إلى حى بيرا حيث يسمح بإقامة الأجانب للحصول على الطعام .

ويذكر نرفال أنه تحايل للإقامة فى استانبول ليشهد احتفالات ليالى رمضان ، فتنكر فى زى تجار الفرس ونزل بتوصية من صديق له فى خان ييلدز (النجمة) وكان يستقبل خليطاً من تجار آسيا «ومنهم المجوس والكوريون والوهابيون مما يكون خليطاً من اللغات يستحيل على الأتراك معرفة إلى

أى جزء من الشرق ينتمى هؤلاء» .

وفى هذا الحان لقى الفرنسي المتنكر من كرم الضيافة الشرقى الكثير ، إذ كان يسمح له بتناول الطعام وشرب القهوة أثناء النهار ، وحينما كان يحل المساء « كان الإيرانيون الذين كانوا كالأتراك يتامون سحابة اليوم ليستطيعوا الاحتفال بكل ليلة من ليالى رمضان يصحبوننى معهم لمشاهدة الاحتفالات المستمرة التى تدوم ثلاثين يوماً » .

وليالى رمضان فى استانبول هى على النقيض من أوقات النهار فالشوارع كلها مزدحمة بالحركة خاصة بالأطفال والنساء أكثر مما تزدهم بالرجال لأن هؤلاء كانوا يقضون أغلب وقتهم فى المساجد والمقاهى . وكانت جميع الحوانيت مفتوحة مزينة بالأكاليل وأصص الزهور ومزادنة من الداخل بالمرابا والشموع ، وكانت البضائع مزينة فى فن ، والمصابيح الملونة تتدلى من الخارج .

أما الطعام الذى يختفى من أيدى المارة نهاراً . فكان يملأ الطرقات ليلاً ، إذ تزدهم الطرقات ببائعى الفطائر والمقليات والفاكهة وسنابل الذرة المسلوقة وكذلك « بانعى البقلاوة وهى نوع من الكعك المشرب بالكثير من السمن والسكر يحبه النساء بصفة خاصة » .

وقاماً . كما هى الحال فى أغلب مدن الشرق . كانت ليالى رمضان تجمع بين العبادة واللهم ، وفى تلك الأخيرة احتل القراقوز المكانة الأولى فى تسليية السكان وقد أهتم نرفال بالدخول إلى أحد عروض « هذه الدمية الغريبة المسماة بالقراقوز » فى أحد مسارح خيال الظل فى ميدان سراسكبيه . وشاهد عرضين أولهما بعنوان « قراقوز ضحية خيانة » وهى تتحدث عن أحد الجنود الأتراك ترك زوجته الجميلة ليرعاها قراقوز فى أثناء غيابه ، وحدثت بسبب ذلك سلسلة من المطاردات الغرامية التى قامت بها الزوجة فى حين نجح القراقوز فى الوفاء بعهده للزوج بعد سلسلة من الحوادث الطريفة التى قابلته .

أما العرض الثانى فهو بعنوان « زوج الأرملة » وهى مسرحية هزلية تهريجية يسمونها « تقليد » . وتدور أحداثها حول أن القراقوز أراد الزواج بأرملة أحد الضباط ولكنها اشترطت عليه أن يتزوج أيضاً « بضرتها » لتتمكن من أغاظتها كما فعلت تلك الضرة معها سابقاً أثناء حياة زوجها المتوفى . ولكن قدوم الزوج الذى كان أسيراً لدى الروس وقيد خطأ فى سجلات الموتى ، ينقذ القراقوز من موقفه الحرج ويغلق الستار وجميع شخوص العرض تنهال ضرباً على المأذون وسط التصفيق الحماسى الشديد من المشاهدين .

والى جانب عروض خيال الظل فقد كان الإيرانيون من جيران نرفال فى خان النجمة يصحبونهم إلى مقاهى استانبول بوصفه طالب علم ، وكانوا يذهبون إلى المقاهى الواقعة خلف مسجد بايزيد والتي كان يجتمع فيها قبل رحلته إلى الاستانة مدخنو الأفيون . وفى تلك المقاهى أدرك الرحالة الفرنسى مدى ما تتسم به ليالى المدينة من سحر بفضل تلك الروايات الرائعة التى يقصها الروادة أو

يرتلونها في أهم مقاهى استانبول . ففى تلك المقاهى جلس نرفال مع الرواد ليشرّب النرجلية أو الشبك ، ملاحظاً أن وجود ورش صاهرى المعادن والنقاشين والحفارين الذين يصنعون أو يصلحون الأسلحة الجميلة قد أضفى على المقاهى جواً شعبياً دون أن تبدو على المقاعد هنا وهناك بعض الملابس المتأنقة .

ولما كان الراوى الذى استمع له نرفال وهو يقص حكاية «ملكة الصباح وسليمان أمير الجن» . من بين مشاهير الرواة فقد كان الازدحام كبيراً على المقهى ، وظل اللفظ شديداً حتى طلب إلى الناس أن يلودوا بالصمت . ثم أتى الراوى وهو «شاب ذو وجه شاحب وملاعغ غاية فى الدقة ونظرة ملتهبّة وشعر طويل يتدلى من تحت غطاء رأسه وبعد أن شرب القهوة أخذ فى رواية قصته شعراً . وبدأ الراوى بعبارة «الحمد لله ولصفيه أحمد الذى تضى عيناه بنور جميل . أنه نبى الحق والوحيد» فيرد عليه الرواد «أمين» ويكون ذلك بمثابة تمهيد لبدء القصة .

وقد حدث لنرفال فى خلال هذا الشهر ما يستحق الذكر لطرافته . فعند ذهابه إلى أحد المقاهى قام أحد الأشخاص وهو «باشا إسكودار» بتحية الحاضرين ببعض المرطبات والقهوة ، وناول القهوجى الحاضرين تلك المشروبات باستثناء نرفال المتنكر فى زى تجار الفرس ، فلما تبّه أحد الحضور القهوجى لذلك أجابه قائلاً «لن أكون أبداً كافراً» ، ويقول نرفال أنه لم يخطر بباله أن هذا الرجل وهو بلا شك مسلم من السنين لا يوجه إهانتة إلا للباس الإيراني الذى كان يرتديه ، إذ عندما عرف القهوجى أنه فرنسى عاجله بالمرطبات .

أما الواقعة الثانية فتتصل بجولة قام بها نرفال فى الحوانيت التى تبيع المياه المجلوبة إلى القسطنطينية من بلاد عديدة وفى سنوات مختلفة مثل مياه الفرات والدانوب وإن كان أهمها مياه النيل لأنها المياه الوحيدة التى يشربها السلطان . ففى نهاية هذه الجولة توقف نرفال أمام واجهة أحد المحلات وكانت تحوى قنينات لامعة بها سائل يبدو أنه عصير الليمون ويذكر أنه ابتاع واحدة منها بقرش تركى «وما أن رفعتة إلى فمى حتى اضطرت إلى لفظ الجرعة دون ابتلاعها وضحك البائع من سذاجتى وكان لابد من العودة إلى بيلدز خان لأجد مشروباً أحسن طعماً» .

حدثت هذه الواقعة القريبة لنرفال فى ليلة العيد ، فظل محتفظاً بالقنينة حتى التقى ببعض النسوة من اليونانيات والأرمن وسألهن عما بها فإذا بهن ينفجرن فى ضحك هستيرى دون أن يعطينه جواباً شافياً . ثم عرف فيما بعد أنه مشروب مقو يلجأ إليه الأزواج من كبار السن فى ليلة العيد .

ويكفى أن نستخلص من عبارات نرفال وهو يتحدث عن أمسية عيد الفطر ، مدى ما وصل إليه التأثير الأوروبى على سلوك العثمانيين وتعايش ذلك جنباً إلى جنب مع الحرص على أداء الصلوات فى أوقاتها .. يقول الرحالة الفرنسى «إن عيد الفطر لدى الأتراك يشبه عيد رأس السنة عندنا . فإن الحضارة الأوروبية التى نفذت شيئاً فشيئاً إلى عاداتهم قد جذبتهم شيئاً فشيئاً فيما يختص

بالتفاصيل المتفقة مع دينهم ، وهكذا فإن النساء والإطفال يشغفون حباً بالتحل بالزينات والكماليات واللعب القادمة من فرنسا أو ألمانيا .

وفضلاً عن ذلك فقد كان عليه القوم من الأندبية يتزاحمون على محل «مدام مونييه» الفرنسية لشراء الحلوى البارسية .

ورغم ذلك التأثير الأوروبى الدامغ فقد اختفى جميع الأتراك فى لحظة واحدة «من المحل حاملين لغائفهم كما يختفى الجنود حين تدق ساعة الانسحاب لأن الوقت كان قد حان لأداء إحدى الصلوات التى يزدونها ليلاً فى المساجد» .

وقد عاين نرفال فى نهاية الليل استعدادات قصر السلطان للاحتفال بعيد الفطر حيث تحركت قوات الجيش وأقيم سباج بين إسكى سراى محل إقامة السلطانة الأم والسراى الكبيرة الواقعة فى الطرف البحرى فى استانبول ، وزعم الرحالة أن السلطان كان سيحتفل بالعيد عن طريق الزواج من إحدى الجوارى !!!



البغدادى فى مصر

هو فخر الدين عبد اللطيف البغدادى . طبيب عالم ورحالة موصلى الأصل ببغدادى المولد ولد حسبما يذكر فى ترجمته لنفسه بدار جدة فى درب الفالوذج ببغداد سنة ٥٥٧ هـ (١٦٢٢م) . ثم أخذ فى تلقى العلوم المختلفة بالمدرستين الظفرية والنظامية ببغداد . ويقول عبد اللطيف فى سيرته عن نفسه « ولما كان فى سنة ٥٨٥ هـ (١٨٩١م) حيث لم يبق ببغداد من يأخذ بقلبي ويملا عيني ويحل ما يشكل على دخلت الموصل ... » وبذا بدأ البغدادى ترحاله الطويل متنقلا فيما بين دمشق والقدس والقاهرة وحلب وبلاد الروم ومنغوليا حتى عاد إلى بغداد ليموت ويدفن بها فى سنة ٦٢٩ هـ بعد غياب عن بغداد طال إلى خمس وأربعين سنة . وقد ضمن البغدادى مشاهداته فى بر مصر فى كتابه الشهير «الإفادة والإعتبار فى الأمور المشاهدة والحوادث المعينة بأرض مصر» . وانتهى من تأليفه حسبما يذكر هو بالقاهرة « فى رمضان سنة ستمائة » .

وفى حضوره إلى مصر حمل البغدادى خطاب توصية من القاضى الفاضل عبد الرحيم البيسانى أشهر كتاب الدولة الأيوبية آنذاك ووزير صلاح الدين الأيوبي . ودفع الخطاب إلى وكيل القاضى «ابن سناء الملك» فجاهه فى الحال إلى الخان الذى نزل فيه وقدم له داراً وقدم له دنانير وغلة ثم مضى ابن سناء الملك إلى أرباب الدولة وقال هذا ضيف القاضى الفاضل « قدرت عليه الهدايا والصلوات من كل جانب حتى أصبح من المثريين » ثم عرض وكيل القاضى الوظائف على عبد اللطيف فاختر منها مسجد لؤلؤ الحاجب الواقع بالقرافة لتدريس الطب والفلسفة والرياضيات .

ولم يلبث البغدادى أن ذهب إلى القدس لملاقاة صلاح الدين الأيوبي . الذى توفى فى عام ٥٨٩ هـ (١١٩٣م) فاضطر للإقامة بدمشق حتى جاء العزيز عثمان بن صلاح الدين بعساكره من مصر وحاصر أخاه الأفضل بالشام وعند رجوعه إلى القاهرة أخذ معه عبد اللطيف وعينه أستاذاً بالجامع الأزهر لتدريس الطب والفلسفة واستمر على ذلك حتى توفى الملك العزيز فى عام ٥٩٥ هـ . ومد إقامته بالقاهرة حيث حضر المجاعة الكبرى التى داهمت مصر وأعقبها الفناء الكبير . وفى تلك الفترة ألف البغدادى كتابه «الإفادة والإعتبار» .

وتعكس فصول الكتاب مدى تقلب الأحوال أبان إقامته بمصر ، إذ أوحى إليه رغد العيش فيما قبل مجاعة عام ٥٩٧ هـ أن يكتب عما فى مصر من نباتات وحيوان وآثار مصرية قديمة ومبان معاصرة . ثم داهمت المجاعة ووباء الطاعون فأفرد فصلاً عن أحداثها التى امتدت من شهر رمضان

عام ٥٨٩هـ . ولم تضع أوزارها إلا فى شهر رمضان من عام ٦٠٠هـ . والذى انتهى فيه من تأليف كتابه .
ولما كان النيل كما استبان للبغدادى هو محور حياة المصريين ومناطق عيشهم فقد أهتم بالحديث عن
هذا النهر ومجراه ومواسم فيضانه ومنايحه ثم تطرق إلى أرض مصر وأشكال تربتها وسبب خصوبتها
وأعتبر أن ذكاء المصريين وتوقد أذهانهم وخفة حركاتهم عائد لحرارة بلدتهم الذاتية لأن رطوبته
عرضية .

وبتمكن المتخصص فى علم النباتات اهتم البغدادى بالحديث عن أزرع النباتات التى عد مصر
مترفة بها أو متميزة فى إنتاجها وإن جنح فى بعض الأحيان إلى إثبات أقوال العامة دون كبير
تحخيص أو تدقيق كقوله بأن «شجر الموز فى الأصل مركب من قلقاس ونوى النخل» .

أما حديثه عن الأطعمة التى يحتفى بها المصريون فى المواسم مثل رمضان فيعد تسجيلاً دقيقاً لما
كان عليه حال المطبخ المصرى وإن ذكر أن أهل مصر من العوام «قلما يعرفون شيئاً من ذلك وأكثر
أغذيتهم الصير (السكك المملح) .. والجبن ونحو ذلك وشرابهم البوزة وهو نبيذ يتخذ من القمح ومنهم
(العوام) أصناف يأكلون الفار المتولد فى الصحارى والغيطان عند انحطاط النيل ويسمونهم سمانى
الغيط» .

ومن بين الأغذية والأطعمة التى ذكرها النيدة «وهى بمنزلة الخبيص حمراء إلى السواد وهى حلوة لا
فى الغاية وتتخذ من القمح» . وذكر أن المصريين يتخذون الدجاج بأصناف من الحلويات وسبيل ذلك
أن يسلق الدجاج ويرمى فى الجلاب (ماء الورد) ويلقى عليه بندق مدقوق أو فستق أو خشخاش أو
برز رجلة (ضرب من الحمص) أو ورد ويطبخ حتى يتعقد ثم يتبل ويرقع وتسمى هذه الأطيخة
بالفستقية والبندقية والحشخاشية والوردية وست النوبة للتى تعقد بيزر الرجلة لسوادها» .

ولكثرة مايصنع من الحلويات المتخذة من السكر . وهى الشانعة فى رمضان . فقد أكتفى البغدادى
بالإشارة إلى استخدامها فى التداوى من أمراض المعدة وأضرب عن ذكرها لكثرة أصنافها حتى أنها
تحتاج على حد تعبيره إلى كتاب خاص .

واختتم حديثه عن الطعام بتفصيل طويل ودقيق لكيفية طبخ «رغيف الصينية» وهى أكلة تتألف
من طبقتين من عجين الخبز بينهما خراف مشوية ومحشوة باللحم المدقوق ومعها فراريج وحمام متبلة
جميعها ومزودة بالفستق واللوز .

ومن حديث الرغد إلى حديث القحط فى عام ٥٩٧هـ . انتقل البغدادى صادمًا القراء . فذكر أن
سنة سبع (٥٩٧هـ) دخلت «مفترسة أسباب الحياة وقد ينس الناس من زيادة النيل وارتفعت الأسعار
وأقحطت البلاد» .

وفى تلك السنوات العجاف شهد البغدادى شهر الصيام فيما ليس له عهد به طوال إقامته السابقة

في مصر . فمن أطعمة رمضان والحلوى إلى أكل الجيف ولحوم البشر يقول البغدادي في رمضان سنة ٥٩٧ هـ « ووجد في رمضان وعصر رجل وقد جردت عظامه عن اللحم فأكل وبقي قفصاً كما يفعل الطياخون بالغنم . ومثل هذا أعوز جالينوس مشاهدته ولذلك تطلبه بكل حيلة وكذلك كل من أتر الإطلاع على علم التشريح » وهكذا لم ينس عبد اللطيف مهنته كطبيب في مثل هذا الموقف المأساوي .

ويواصل البغدادي حديثه عن تعلق الفقراء في رمضان بأكل بنى آدم حتى أن الناس كانوا يتناقلون أخبارهم « ويفيضون في ذلك استفظاعاً لأمره وتعجباً من ندرة وقوعه ثم أشتد قرمهم (اشتياقهم) إليه وضراوتهم عليه بحيث أتخذوه معيشة ومطية ومدخراً وتفننوا فيه وفشا عنهم ووجد بكل مكان من ديار مصر فسقط حينئذ التعجب والاستبشاع واستهجن الكلام فيه والسماع له . »

وفي ذلك كله لاحظ عبد اللطيف أن أكثر المتهمين بأكل لحوم الأطفال الصغار كن من النساء وأرجع ذلك لأنهن « أقل حيلة من الرجال وأضعف عن التباعد والاستتار ولقد أحرق بمصر خاصة في أيام بسيرة ثلاثون امرأة كل منهن تقر أنها أكلت جماعة » .

وقد رأى البغدادي « امرأة مشججة الرأس يسحبها الرعاع في السوق وقد ظفر معها بصغير مشوى تأكل منه ، وأهل السوق ذاهلون عنها ومقبلون على شؤونهم لم أر فيهم من يعجب لذلك أو ينكره فعاد تعجبي منهم أشد وما ذاك إلا لكثرة تكرره على إحساسهم حتى صار في حكم المألوف الذي لا يستحق أن يتعجب منه ، ورأيت قبل ذلك بيومين صبياً نحو الرهاق مشوياً وقد أخذ به شابان أقرا بقتله وشبهه وأكل بعضه » .

وزاد من قتامة صورة رمضان التي قدمها البغدادي في هذه السنة انتشار الوباء الذي أهلك أهل القاهرة حتى خلا معظم بيوتها وانخفضت أسعار المنازل لموت السكان ، وقد فنى أغلب سكان القرى في هذا الوباء حتى أن الأرض أقامت سنين ولم تجد من يزرعها سوى الجنود وحسبما يذكر عبد اللطيف البغدادي فإن حرث الأرض كانوا غير الزراع وأن الذين أكلوا من ثمر الأرض كانوا أيضاً غير هؤلاء جميعاً لتفشي الموت .

وقد ذكر البغدادي أن إرثا تعاقب عليه أربعة عشر شخصاً بسبب توالي الوفيات خلال هذا العام . واهتم في نهاية كتابه بأن يبين فزع الناس واهلهم خلال شهر رمضان سنة ٥٨٩ هـ عندما توقفت زيادة فيضان النيل « إذ انتهى إحتراقه في رمضان وانحسر عن القياس نحو ثمافته ذراع » وقيل انتهاء الشهر الكريم بأربعة أيام كان القاع ذراعاً ونصفاً ولم يزد النيل إلا في شهر ذي الحجة وأمضى الناس رمضان في قلق وترقب بسبب ذلك .



العبدوى فى القاهرة

فقد أواخر النصف الثانى من القرن السابع الهجرى . وبالتحديد فى عام ٦٨٨ هـ (١٨٩٩م) عزم محمد بن محمد بن على العبدوى وهو من علماء المغرب على الارتحال إلى ديار الشرق . وسجل ما رآه فى ذهابه وإيابه وإن مازالت رحلته مخطوطة إلى الآن .

وتتميز مدوناته عن القاهرة ومصر المملوكية بما هو أكثر من الصراحة . إذا لم يتخل عن ذكر مثالبها العمرانية وانتقاد السلوك الاجتماعى لسكانها . وقد بدأ العبدوى بالحديث عن الاسكندرية ، أول محطة يقصدها أهل المغرب فى ترحالهم تجاه الحجاز والشرق الإسلامى . وعادة ما يكون وصولهم إليها فى شهر رمضان ليلحقوا بحمل الحج الذى يخرج من القاهرة فى شهر شوال . وعن هذه المدينة الساحلية القديمة يقول العبدوى «الاسكندرية مدينة الحصانة والوثاقة وبلد الإشراف واللامع والطلاقة وطلاوة المنظر وحلاوة المذاقة .. مدينة فسيحة الميدان مليحة البنيان . كأنه لم يغب عنها شخص الاسكندر . مما ساس فيها من عجائب مبانيها ودبر . ناهيك بمدينة كلها عجب قد ستر حسناتها حسن غيرها وحجب» ثم أخذ فى وصف أهم مبانيها ولاسيما «منارها الفريد» وعرج على وصف أحوال أهلها وذكر عدداً من أهل الفضل والعلم الذين لقيهم فيها وما سمعه منهم أو ما قرأه عليهم .

وانتقل العبدوى إلى القاهرة فى أخريات رمضان . فنزل بالمدرسة الكاملة بالجمالية وهى مطلة على شارع بين القصرين أكبر شوارع القاهرة وأحفلها بالحركة وأعمرها بالأسواق . وكان أمامها حسبا يذكر المقرئى فى خطبه سوق الدجاجين حيث يباع الدجاج بأنواعه وشتى أصناف الطيور المغردة ثم سوق الشماعين الذى يزدان بأصناف الشموع «الموكبية» أى الضخمة خلال شهر رمضان حتى يستحيل ليل هذا الجزء من السوق إلى نهار وتقف فيه سيدات ماهرات فى ألعاب الهواء وحركات البهلونات ولهن الخناجر فى أوساطهن ويعرفن لذلك ولشجاعتهن بزعميرات الشماعين .

وقد اهتم العبدوى بأن يعطينا إحساس المقيم ليلاً ونهاراً بهذا الجزء المزدهم من الأسواق ولاسيما وأنه نزل فى المدرسة الكاملة فى علو يشرف على السوق فيقول عليه رحمة الله «فكنت قلما أرقد ألا منغصاً لصياح الباعة وهم يبيعون طوال الليل . وقلما يكون طعام الشريف منهم والرضيع إلا من السوق .. والطريق غاصة بالخلق حتى ترى الماشى فيها ما له هم سوى التحفظ من دوس الدواب إياه . ولا يمكنه تأمل شئ فى السوق لأن الخلق يندفعون فيها مثل اندفاع السيل . وقد ضاعت لى بها دابة بسبب الزحام كان عليها شخص راكباً إياها ، فتكاثر عليه الزحام حتى أسقط عنها واندفعت فى غمار الخلق ولم يمكنه التوصل إليها وهو يبصرها حتى غابت عنه وكان آخر العهد بها» .

وأتم العبدري صيام رمضان بالقاهرة وصلى مع أهلها صلاة العيد ، ويبدو أنه لم يلق منهم ما كان يؤمله ويرتجيه من الترحيب الواجب بالغرباء ولذا عجده يقول « ولم أر منهم يومئذ من صدر منه التأنيس بكلمة » فأثر ذلك في نفسه وربما دفعه هذا الأمر إلى إبراز ما اعتبره من مثالب العمران في القاهرة ونواقص أهلها أيضاً .

ولم يسلم من نقد العبدري اللاذع سوى نهر النيل والشيخ الدمياطى . فقد أبدى العبدري القدام من فيافي الصحراء الافريقية إعجابه بنهر النيل . فهو في نظره « من عجائب الدنيا عذوية واتساعاً وغلة وانتفاعاً وقد وضعت عليه المدائن والقرى ، فصار كسلكك انتظم درراً » . كما أبدى استحسانه لجملة ما شاهده بمصر كالأهرام ومشاهد الحسين والسيدة نفيسة وآل البيت وتربة الإمام الشافعى بالقرافة .

ورغم كثرة المشايخ في مصر الذين التقاهم العبدري وسمع منهم خلال شهر رمضان إلا أنه دون العديد من الانتقادات بحق حتى أولئك المشهود لهم بعزارة العلم وذيرج الصيت .

فبعد أن قابل الشيخ ابن دقيق العيد ، ذكر العبدري أنه رآه « حبراً كاملاً عالماً يحق له اللقاء . وبحراً من علم لا تكدره الدلاء ، له تفنن في فنون العلوم وتسلط عليها بذهن يرد المجهول إلى المعلوم ، ولما يلقى له في سمة المعارف نظير أو يوجد من يماثله في صحة البحث والتنقيب ، وله في البلاد ذكر شهير ، وصيت مستطير وخطر خطير يضرب في كل فن بسهم مصيب ويحظى منه بأوفر نصيب ... فهو الآن قطب مصر وعلمها ولولا (وآه من لولا هذه) وسوسة تصحبه وأخلاق يجلب عنها منصبه ، لو كانت لها صورة كانت أشنع الصور أو تليت لها سورة كانت أبشع السور » .

أما حديثه عن العلماء الذى خلال من « لكن » و« لولا » فقد كان عن المحدث بالمدرسة الظاهرية ببيرس بالنحاسين (دثرت الآن) فيقول عنه « لم أر بهذه المدينة على كثرة الخلق بها أمثل وأقرب إلى الإنسانية وأجمل معاملة من الشيخ عبد المؤمن بن خلف الدمياطى المحدث بالمدرسة الظاهرية وقد سمعت منه أحاديث جملة من سنن الشافعى » .

ويبدو أن الدمياطى الذى نجح وحده من نقد العبدري قد قابل الضيف المغربى بما أمله من « إنسانية » وترحاب أهملها سواه من المشايخ أثناء دروس رمضان .



إدوارد لين فى القاهرة

لخصت هذا الرحالة المستشرق مصر ليدون ما يشاهده بها خدمة للقراء الإنجليز بنى جلده ، ولعله فى ذلك أراد ترسم خطى الدكتور رسل RUSSEL الذى ألف كتاباً عن أهل حلب لاقى انتشاراً واسعاً فى الجزر البريطانية .

وقد زار «إدوارد ولیم لين» مصر مرتين أولاً كانت فى عام ١٨٢٥م والثانية فى عام ١٨٣٣م . ورغم أن هاتين الزيارتين قد وقعتا فى فترة حكم محمد على إلا أن الرحالة والمستشرق الإنجليزى قد لاحظ أن المجتمع المصرى فقد كثيراً من اتصاله الوثيق بتقاليد العصور الوسطى ولاسيما فى احتفاله بالمناسبات والأعياد وإن آلية الدولة الحديثة التى حاول محمد على تنظيمها على النمط الأوروبى قد أخذت تؤتى ثمارها فى المجتمع .

ويعد كتاب لين «المصريون المحدثون» بمثابة سفر عظيم الفائدة لكل من أراد البحث فى أحوال مصر خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر . وإن عابه بعض الشئ أن المؤلف قد أخذ الكثير من تأويلاته للأصول التاريخية للعديد من التقاليد والعادات السائدة من أفواه الذين قابلهم . ولم يحاول أن يمحس أقوالهم ربما لظرافتها التى تثير إعجاب وشغف القراء الأوربيين .

وما عنى لين بتسجيله ذلك الاحتفاء الشعبى بمقدم شهر رمضان بادئاً بتسجيل ما يحدث فى ليلة رؤية هلال رمضان . فيذكر أن نفرأ من الناس يخرج إلى الصحراء لرؤية الهلال . «وتكفى شهادة المسلم الواحد أنه رأى للهلال لإعلان للصيام» .

وقد أحتفظ لنا الرحالة الإنجليزى بوصف كامل للموكب الشعبى المعروف «بموكب الرؤية» وكان يبدأ من القلعة مقر الحكم إلى مجلس القاضى بالمدرسة الصالحية النجمية بحى الجمالية بالقاهرة . ويشارك فى هذا الموكب «المحتسب ومشايخ الحرف المتعددة . الطحانين والخبازين والجزارين والقصاصين والبدالين وبيعة الفاكهة ومعهم بعض أعضاء آخرين من هذه الحرف وفرق من الموسيقيين وعدده من الفقراء (المتصوفة) يتقدمهم أو تتخللهم فرق من الجنود وجرت العادة فى هذا الموكب أن تتقاد خيول مسرحية بأجمل السروج . ويعد أن يصل الموكب إلى مجلس القاضى بمكث الجميع فى انتظار عودة أحد المسلمين لرؤية الهلال أو شهادة أن مسله أخر على أنه رآه . بينما تفص انطراقات التى يمر بها المارة والمتشاهدين . ذلك ما ساسده لين فى ريارته الأولى نشر .

وعندما عاد إليها بعد سنوات لا تتعدى الشمانية لاحظ أن الموكب المدنى والدينى استبدل بأكثره

عرض عسكري تافه» حيث صار الموكب يتكون من مشاة النظام ، ويتقدم حاملو المشاعل كل فرقة من الجنود ويتبعونها ليميزوا لهم الطريق عند العودة «ويتلوهم شيخ حرفة ما وآخرون من أتباعه ، وعدة قفراء يصيحون طوال الطريق : الصلاة . الصلاة . صلوا على النبي عليه السلام . ويفصل كل فرقتين أو ثلاث فاصل عدة دقائق ويختم المحتسب وتابعوه الموكب» .

ويبدو أن تقلص دور طوائف الحرف في هذا الموكب . وفي الحياة قبل ذلك . عائد إلى مشروعات محمد علي الصناعية التي ارتبطت بالاحتكار وإزاحة دور نقابات الحرفيين لصالح الدور المتنامي لدولة محمد علي الحديثة ، وقد حضر «إدوارد لين» هذا التحول في الفترة السابقة على انهيار حلم محمد علي بعد توقيع اتفاقية لندن عام ١٨٤٠م .

وإذا ما تم التيقن من الرؤية أنطلق الجنود والمجتمعون في الأحياء المختلفة . صائحين «يا أمة خير الأنام ! صيام صيام» . وعندما لا يرى القمر هذه الليلة يقول الجنود «غدا من شهر شعبان . فطار ! فطار» .

وكما هو الدأب دوماً في الشهر الكريم منذ صدر الإسلام ، كانت تضاء مساجد القاهرة فتعلق المصابيح عند مداخلها وفرق شرفات المآذن . أما في أوقات النهار فإن أهم ما اهتم «لين» بالحديث عنه هو خلو الطرقات من المارة الذين يمسون «بشبيكهم» إذ رآهم بدلا من ذلك «يحملون عصا أو مسبحة أو لا يحملون شيئاً إلى ما قبل الغروب . والكأبة البادية على الشوارع في الصباح الباكر لإغلاق معظم الدكاكين «غير أنها تفتح جميعاً في العصر وتزدحم كالمعتاد» .

وقد لاحظ أن المسيحيين في زيارته الأولى للقاهرة كانوا يخشون التدخين في حوانيتهم نهراً على مرأى المسلمين الصائمين . ولكن بعضهم لم يعد يخشون ذلك في زيارته الثانية .

ويسجل إدوارد لين أن كثيراً من الطبقتين العليا والوسطى يفتطرون سراً . بينما يقل من لا يصومون من الفقراء . وإن عادة كبار الأتراك بالقاهرة وكثيرين غيرهم أن يقصدوا مسجد الحسين عصر كل يوم في رمضان للصلاة والاسترخاء وفي هذا الوقت يعرض بعض التجار الأتراك الذين يسمون «تحفجية» على الناس في ساحة الميضاة مجموعة من البضائع ذات ذوق وترف يلائمان رغبات مواطنيهم . ومعلوم أن العامة كانت تطلق كلمة «تحفجي» على بائعي المعاجين والمنازل وهي مواد يدخل فيها الحشيش والأفيون" . ورغم ذلك فقد كان من الشائع في القاهرة في هذا الشهر . أن تشاهد تجاراً في حوانيتهم يتلون القرآن أو الأدعية أو يوزعون الخبز على الفقراء .

أما عن عادات الأسر في منازلها عند الغروب فيلخصها لين في أن غرفة الاستقبال بمنزل الطبقتين العليا والوسطى كانت تضم صينية فيها صحاف عديدة تحوى أصنافاً مختلفة من الفاكهة المجففة (النقل) مثل البندق والزبيب والجوز واللوز والبلح والتين المجففين والبندق المسكر إلى جانب الكعك وعدة «قلل من الماء المحلى بالسكر ومعها عادة كوية أو كويتان زيادة على عدد الزائرين

الحاضرين ، ليشترك فى الشرب كل من يقدم على غير انتظار . وكثيراً ما تضاف قطعة من الجبن الطازج وبعض الحبز ويجهز الشبك (للتدخين) أيضاً .

ويبدو أن المصريين آنذاك كانوا يفتطرون أولاً بتناول أكوام من الشراب ثم يؤدون صلاة المغرب وبعدها يتناولون بعض النقل ويدخنون الشبك . وعقب هذا الأكل الخفيف يجلسون لتناول الفطور وهو عادة من اللحم وغيره ، ثم يعقبون ذلك بشرب القهوة وتدخين الشبك قبل أن يؤدوا صلاة التراويح .

وفى حين تخلد الأسر إلى النوم قبيل منتصف الليل كان الرجال يخرجون أما إلى بعض بيوت الأصدقاء أو إلى المقاهى «للاستماع إلى أحد القاصين الذين يسلمون القوم فى عدة مقاهى كل ليلة من هذا الشهر» وتزدحم الشوارع بالمارة أثناء الليل وتظل دكاكين المشروبات والمأكولات مفتوحة «وهكذا ينقلب الليل نهاراً وبخاصة عند الأغنياء الذين ينام أكثرهم معظم النهار» ولا يعنى ذلك أن حياة الليل فى رمضان وجهاً واحداً . فهناك أيضاً وجه آخر حيث نجد أن بعض علماء القاهرة اعتادوا إقامة «ذكر» فى منازلهم كل ليلة من ليالى رمضان وقد يدعو بعض الآخرين أيضاً أصدقاءهم ويسلمونهم بإقامة ذكر أو خاتمة .

وبينما يفص قلب المدينة بحركة المارة وصخب المقاهى يجول «المسحرون» فى الحارات . فيمرون فى أول الليل ليقدموا بعض كلمات المدح والثناء أمام كل منزل يستطيع صاحبه أن يكافئهم . وفى ساعة متأخرة يجولون ليعلمنا وقت السحور . وكان الشائع آنذاك أن لكل حى أو خط مسحر خاص يسميه بازا .. ويمينه عصا صغيرة أو سيراً (من الجلد) يضربه به ويصعبه غلام يحمل قنديلين فى إطار من الجريد . وبعد الصلاة على الرسول صلى الله عليه وسلم يحيى المسحر صاحب المنزل (أسعد ليالك يا فلان) ثم اخوته وأولاده وبناته الأبيكار فقط قائلاً فى الحالة الأخيرة (أسعد الليالى إلى ست العرايس فلانه) . وبعد ذلك بمثابة إعلان عن وجود فتاة لم تتزوج بعد فى هذا المنزل . ويحدث فى بعض الحالات أن يقوم المسحر برواية قصة المعراج أو نحوها من سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم ضارباً طبله بعد كل قافية . ولا يقف المسحر على منازل الحزانى «ويتناول المسحر على العموم من منزل المتوسط الطبقة قرشين أو ثلاثة أو أربعة قروش فى العيد الصغير ويعطيه البعض مبلغاً زهيداً كل ليلة» .

ولا يتوقف دخل المسحر عند هذا المعلوم الضئيل القيمة ، بل يزيد غالباً عن ذلك نتيجة أن بعض نساء الطبقة المتوسطة كن يعمدن إلى وضع نقد صغير فى ورقة ويقدفن بها من النافذة إليه بعد أن يشعلن الورقة ليرى المسحر مكان سقوطها . «فيقرأ الفاتحة بناء على طلبهن أحياناً أو من تلقاء نفسه ويروى لهن قصة قصيرة فى سجع غير موزون ليسليهن ، مثل قصة الصرتين وهى قصة مشاجرة امرأتين متزوجتين رجلاً واحداً وبعض ما يرويه فى هذه المناسبات بذئى . ويستمع إليه مع ذلك النساء فى المنازل الحسنة السمعة» .

ويظهر أن الإذاعة المصرية قد استوتحت فى منتصف هذا القرن دور قاص المقهى والمسحر وهى تبث
ققرة المسلسل الرمضانى فى برامجها خلال هذا الشهر .

أما الاحتفال بعبد الفطر فقد لاحظ إدوارد لين أن الناس بعد خروجهم من صلاة العيد يتعانقون
مهنتين ويتزاورون للتهنئة بالعيد . « ويلبس البعض حتى من الطبقة الدنيا ملابس كاملة جديدة ويكاد
الكل يلبسون شيئاً جديداً ولو حذاء فقط » .

ويأكل أهل القاهرة فى أول أيام العيد . كما هو شأنهم قديماً وحديثاً ، السمك المملح (الفسيوخ)
والكعك . وكانت لهم فى هذا اليوم أكلة يذكرها لين باسم المزرة وقد اختفت الآن وهى تتكون من
اللحم والبصل والديس والخل والدقيق الخشن » .

ومن العادات « القديمة الجديدة » التى كانت معروفة بمصر فى هذا الوقت خروج أفراد العائلات
(وخاصة النساء) لزيارة مقابر أقاربهم ويحملون معهم السعف والريحان فضلاً عن الكعك والشريك
والفطير والبلح وقد يبيت البعض بالقرافة ليوم أو أكثر بهذه المناسبة . وقد لفت نظر « إدوارد ولين
لين » ازدحام مقابر « باب النصر » إلى شمال القاهرة بالزوار وكثرة الخيام المعدة بها لإقامتهم .

وقبما عدا تلك المظاهر فلم يسترع انتباه لين فى أيام العيد سوى إغلاق « أغلب حوانيت العاصمة
ما عدا حوانيت المأكولات والمشروبات غير أن الشوارع تظهر لمشهد المارة فى ملابس العيد فى منظر
بهيج » .



محمد السنوسى فى الاستانة

ولدت محمد بن عثمان بن محمد السنوسى بحاضرة تونس فى الثانى والعشرين من ذى القعدة عام ١٣٦٧ هـ (١٨ سبتمبر ١٨٥١م) ونشأ فى بيت علم فدرس بجامع الزيتونة وتخرج فيه ليعمل مدرساً ثم التحق بوظائف حكومية متعددة ورعى إصدار جريدة «الرائد» . وعندما فرضت الحماية الفرنسية على تونس تعلق السنوسى بالحج لمغادرة البلاد بعد أن منعت السلطات المحلية من ذلك . وقد دون مشاهداته فى هذه الرحلة ضمن كتاب صدر فى ثلاثة أجزاء تحت اسم «الرحلة الحجازية» .

وقد حضر محمد السنوسى رمضان فى الاستانة عاصمة الخلافة العثمانية سنة ١٢٩٩ هـ (١٨٨٢م) . وإن أدرسته أول أيام الشهر وهو فى ميناء نابولى بإيطاليا ثم وهو ببخرة ضخمة تابعة لشركة الساجرى عبرت به المتوسط باتجاه القسطنطينية . ويذكر السنوسى أنه التزم على ظهر البخرة «ترك ما يأتون به من الخمر وآنيته الملازمين للطعام» فأظهر له القبطان تعجبه من ذلك مشيراً إلى أن كثيراً من المسلمين معه يقولون أن القليل من الخمر غير ممنوع ولذا فهم يتناولون مقدار أربعة أصابع من آنية الخمر . فرد عليه السنوسى بأن «هذه الخمر عصير عنب وهى فى ديننا محرم كثيرها وقليلها والقائلون بجواز ذلك القليل لم يريدوا إلا إقتناع السائل تستراً من إظهار المجاهرة بارتكاب المحرم» .

وقد نزل السنوسى القسطنطينية فى سادس شهر رمضان وتلقاه فى بوغازها وكيل التوانسة السابق التاجر عمر راوى ومحمد العمادى بيرم والمرعى العربى بسيس وجميعهم من أهل بلده . ويصف ابن تونس ، ككل زائر للمدينة جمالها الأخاذ بعد «أن أسدل الليل رواقه واتقدت مآذن المدينة وأسواقها» إذا رآها فى أبهج المناظر الليلية ، وذكر أن عدد سكانها يصل إلى المليون والنصف آنذاك منهم نحو المليون من المسلمين .

ولما كان الرحالة السنوسى قد أقام مدة فى إيطاليا قبل السفر وهو لا يسمع إلا «قرع النواقيس قرعاً يغم منه القلب» فقد حرص على أن يخرج لصلاة العشاء بأقرب الجوامع من بيت مضيفه محمد بيرم «فكان دخولى تلك الليلة لجامع بشكطلاس من أذما لاقيته فى تلك المدينة العظمى . وكان وقع تلاوة القرآن من قراء المحفل ثم من الإمام أعظم المواقع فى نفسى» .

ووقع من الرحالة التونسي الاهتمام بزيارة معالم القسطنطينية ، فذهب خلال شهر رمضان لزيارة ضريح أبى ايوب الأنصارى وهو صحابى شهد مع النبى صلى الله عليه وسلم المغازى وحضر واقعة صفين مع على (رضى الله عنه) وخرج فى غزو القسطنطينية سنة ٤٨ هـ حين كان شيخاً هرمأ وتوفى

هناك فأمر يزيد بن معاوية أن يدفن عند سورها فأصبح مدفنه أعظم مزار بتلك المدينة وحوله جامع بهيج من أشهر جوامعها خطيبه جلال الدين أفندي .

وزار محمد السنوسي أيضاً جامع أيا صوفيا وأورد وصفاً دقيقاً لعمارته ، وقد وقعت له عند دخوله لهذا الجامع حادثة طريفة تعكس حالة الشقاق المذهبي التي وسمت تلك الفترة . فعند قيامه لصلاة ركعتي تحية المسجد قبل صلاة العصر أسدل يديه جرياً على عادة المالكية من أهل المغرب فحدث لغط في الجامع وهممات وبعد فراغه من الصلاة قام إليه شيخ مسن يعرف القليل من العربية فسأله عن بلاده ومذهبه فأعلمه أنه مغربي تونسي وأنه أسدل يديه في الصلاة لأن ذلك مشهور في مذهب مالك « فقال للمتظرين له من حولنا : مذهب مالكي سني » والتفت إلى السنوسي موضحاً أن سدل اليدين عندهم معروف للشيعة ولذلك تشوش الجماعة . وعندئذ تذكّر السنوسي أن مالكا قبض في الصلاة وأن فقهاء المالكية ذكروا أنه لا بأس من القبض عند الضرورة أو خوف التشويش « ومن ذلك الوقت رجعت إلى القبض في الصلاة مدة إقامتي بالآستانة » . وعندما حضر السلطان للصلاة في جامع أحمد الثالث لاحظ أن الموفد التونسي يقبض في صلاته فاستفسر عن سر ذلك وهو يعلم أنه على مذهب مالك فروى السنوسي قصته وترجمها الشيخ محمد ظافر للسلطان .

وتكاد مشاهدات السنوسي في رمضان القسطنطينية قصراً على المساجد وما يجري فيها خلال الشهر الكريم ، مثل استحسانه لعادات المصلين في أن لا يدخلوا أنعلتهم إلى بيت الصلاة . إذ للأنعلة حفظة عند الأبواب لهم خزائن يحفظون بها الأنعلة ، ويرر ذلك بأن الفقهاء قد كرهوا « دخول النعل غير المأمونة من النجاسة إلا للضرورة . وقد دفعت الضرورة عادة البلاد العثمانية » .

وقد أعجب محمد السنوسي أيضاً بمجالس دراسة التفسير والحديث والوعظ التي تعقد في جامع أيا صوفيا بعد صلاة العصر في كل يوم من رمضان وكان بعض هذه المجالس يختص بالنساء فيجلسن « داخل سياج حافظ لهن ويجلس المدرس وراء السياج فيقهرن ولا يحضر عليه أحد من الرجال » .

ولما كان رحالتنا التونسي قد زار القسطنطينية وهي توشك أن تنتهي استدارتها الكاملة باتجاه أوروبا فقد هاله ما يحدث في تلك الدروس الدينية من أخطاء مرجعها إلى عدم حفظ القرآن أو قلة الدراية باللغة العربية .

فقد وقف على درس أحدهما فإذا هو يتلو قوله تعالى : (وإن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحداً) (سورة الجن - الآية ١٨) فقرأ فلا تعبدوا مع الله أحداً ، فعاجله السنوسي بتلقين الآية فلم يقبل وأخذ يقرر معناها باللغة التركية إلى أن وصل لتعبدوا فذكر مصدر العبادة العربي وأخذ يفسر العبارة بذلك « فأعدت تنبيهه فتكلم بالتركي ولم أفهم ما قال سوى أن رجلاً عالماً كان بمقرية منا وكان يسمع جميع ذلك فقام إليه وصاح به وتكلم معه بالتركي وأرجعه » . وبعد ذلك قال هذا العالم للسنوسي « إن دروس رمضان لا يقرئها العلماء في بلادنا ووصف الرجل بالجهل » . ومع ذلك فقد

لاحظ محمد السنوسى أن هذا العالم التركى كانت معرفته بالعربية قليلة وغاية ما أستفدت منه أن المدرس تلا عبارة التفسير فى مقام تلاوة الآية .

وبهذه المناسبة تذكر السنوسى ما أخبر به الشيخ محمود قابادو وهو تونسى أيضاً من أنه سمع مدرساً بالأستانة وهو يخطئ فى أحرف اللغة العربية خطأ فاحشاً وهو يقرأ أحد أبيات الشعر العربى وعقب على ذلك قائلاً بأن «الجهل يتوارث فى الأهم إذا لم يوجد فيها ما يرفعه» .

ويبدو أن مثل تلك الأخطاء كانت شائعة بين رجال الدين الاتراك حتى وإن أحسنوا العربية مثل خطيب جامع نورى عثمان وهو «سليمان أفندى» الذى تلعلم فى ذكر معنى الأغتسال وتطق كلمة الغسل على غير ما هو مشهور فى نطقها «وقد بلغنى عنه أنه إذا أخطأ فى رواية حديث أو نقل مسألة يعتذر بأنه يقول ذلك باللسان العربى والحاضرون لا يفهمون ما يقول وبذلك لا يرى من حرج فيما يأتى به» وقد عاين السنوسى جامع للسلطان بايزيد وذكر أن باحاته فى شهر رمضان أسواق للتحف والحلويات .

أما صلاة العيد فقد أداها فى الجامع السلطان سليمان (السليمانية) ، وهو أكبر من آيا صوفيا وخطيبه اسمه مصطفى أفندى» . وبمناسبة العيد تحدث السنوسى عن مسارج الاستانة (التياترات) المعدة لضرب الآلات وورقص الغانيات وتشخيص المضحكات . وهناك تسمع النغمات التركىة وتوجد رائعات الجمال من بنات الروم والأرمن وتشاهد المشاهد المضحكة فى تشخيص الروايات الصحيحة وموضوعات النوادر المسلية للتربية والطرب على قاعدة ما وضعه العرب من الروايات التى يعبر عنها بحديث خرافة ما وضعه على ألسنة العجميات مما حوى نوعه كتاب كليلة ودمنة» . وشتان الفارق بين حال الاحتفالات الشعبية بالعيد عند زيارة الفرنسى نرفال للمدينة قبل حوالى نصف قرن وبين ما عاينه السنوسى من مظاهر أوروية أقصت خيال الظل أو القراقوز عن مكانه العتيذ التليد فى قلوب واهتمامات عامة الشعب .

ويقف وصف السنوسى لملايس السيدات عند النزهة فى أيام العيد دليلاً ناصعاً على أن ما جاء به أتاتورك بعد ذلك من تحول كامل نحو أوروبا لم يكن سوى تنويع لظواهر كانت آخذة بالتنامى وأبن نقاب السيدات الشفاف الذى شاهده السنوسى من النقاب الذى تحدث عنه نرفال قبل خمسين عاماً ، حتى أن الحكومة كثيراً ما كانت تصدر الأوامر للنساء باستعمال الخمار الصفيق فلم تبلغ الحكومة من ذلك مقصدها فكان طريقة النساء الروم بقيت عليها نساء الترك» .

